بطل بلا افق

محمد تامر

بطل بلا روح

(رواية)

تأليف: محمد تامر

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله

لله الشكر والحمد والفضل على سائر نعمه عموماً، وعلى نعمة إلهامه لي بإتمام هذا العمل الأدبي خصوصاً، وهو الموفق والمستعان. اللهم انصر إخواننا في فلسطين، وثبت أقدامهم وانصرهم على أعدائهم وخاذليهم. اللهم آمين.

تنويه

هذه الرواية - كعادة أغلب ما كتبت من حبكات - تدور في مكان وزمان خياليين أو بديلين ، حتى وإن تشابها كثيراً مع الواقع بحاضره أو ماضيه أو مستقبله ، فيظل المبدع والمبتكر والمتحكم الوحيد بكل أحداثه هو أنا ؛ بما يخدم رسالتي وهدفي من الحبكة بشكل عام.

إهداء

إلى زوجتي المستقبلية العزيزة...

لا أدري كيف حال المستقبل عندك ؛ هل اختفت المادية من نفوس وأفعال أفراده ، وهل عادت إليهم عقولهم وأرواحهم مجدداً أم أنهم ما زالوا كالموتى السائرين ؛ مجردين من المشاعر والقيم والأحلام ، عابدين المال دون سواه ؟

أرجو أن تكون الإجابة سارة عندما ألتقيكِ!

خطرت على ذهني فكرة هذه الرواية بعد فترة من اكتشافي لإصابتي بأحد أعراض الاكتئاب المسمى بالأنهيدونيا ؛ وهي حالة انعدام التلذذ والمشاعر ، وهذه حالي يا عزيزتي منذ أعوام عدة لكنني لم أعرف مسمىً أو تفسيراً لها ، والآن وقد بت أعرف فقد أتت لحظة تفريغي لأحمال فكرية أنهكت عقلي وما تبقى من قلبي المحترق.

لم أعد أتلذذ بالموسيقى أو الفن أو الأدب يا عزيزتي ، وما زالت محاولاتي للشعور بالإله وبأفضاله وبوجوده تفشل ، ما زلت مؤمناً بدون عمق أو ملموسية لذلك الإيمان ، أصلي بلا روح أو إدراك لقدسية ما أفعل ، أصبحت نصف حي تقريباً وضاع مني كل ما كان يجعلني إنساناً ؛ فأصبحت آكل وأشرب وأنام منتظراً اليوم التالي ، كأنني خروف أساق إلى الذبح!

ومن هنا أتت فكرة بطل الرواية الذي يحيا في عالم ينافس القارة القطبية الجنوبية في برودتها رغم اعتدال مناخه ؛ بكون من يحيون فيه خالين من الحياة وينتهجون المادية البحتة معتبرين إياها الحالة الأسمى لوجودهم وتحقيقهم لذواتهم ، وهو ذلك المصاب بالأنهيدونيا - مثلي - ويقرر فجأة بمشورة بعض من رفاقه أن يقود حركة ثورية سلمية بهدف إعادة الأمور لما كانت عليه ، و...نعم ، إنه مثلي عندما أنصح أحدهم بفعل أمر ممتع أو مفيد بينما لا أشعر أنا بأي شيء إن فعلته!

أجل يا حبيبتي ؛ أنا هو البطل بلا روح ، الفارق أنني لست بطلاً حقيقياً مثل بطل الرواية!

إنني أجلس وحسب مستسلماً لضياع روحي ، منتظراً موتي كأنه الخلاص حتى وإن كنت أعلم أنه سيكون هلاكي!

هذه الأيام والأحداث تجدد شوقي إليكِ يا محبوبتي ؛ علك تكونين الحدث الذي يكتب الله له أن يغيرني ويجمل حياتي ، ويجعلني أفيق من سكر الشوق إلى الموت الذي لا أستطيع أن أنتزع نفسي منه!

سأنتظرك ، وسأعلق آمالي على ربي وعليكِ ، وعندما أصبح مستعداً سأحاول أن أكون بطلاً بصورة تجعلك فخورة بي ، أعدكِ بذلك.

حفظك الله وأدام حبنا العابر للأزمان والأبعاد هذا وقوداً لي يجعلني أتحمل مرور أيامي التي تبدو كأنها عربات قطار تمر علي!

الفصل الأول

الصفوة

٣ مارس - ١٩٦٠م

اجتمع شعب مدينة "الروح" الصغيرة والمعزولة عن العالم ذات يوم استجابةً لأوامر حكامها ، في ميدان المدينة الواسع بعد أن أخلوه استعداداً لقدوم الكبار ، والذين عندما وصلوا ورأوا الجموع الحافلة تنتظرهم لم يضيعوا وقتاً ، وإنما صعد أحدهم من فوره منبراً كبيراً يتوسط الميدان ، وبدأ يخطب فهم قائلاً وهو يرى نظراتهم البلهاء غير مصدقة قدومهم بشحومهم ولحومهم: "يا شعب مدينتنا الحر ، جئنا إليكم اليوم بسلام ، وأعلم أن كثيراً منكم يتعجب قدومنا من قصورنا وأبنيتنا المزخرفة العالية لأجل أن نلقاكم ، لكنكم شعبنا وتهمنا مصلحتكم ؛ فالمدينة في المقام الأول لا قيمة لها بدونكم!"

همس شخص من بين الحشود متهكماً: "أفواهكم عذبة وتنطق بحلو الكلام ومعسوله أيها السياسيون! بحق الإله أعلم يقيناً أن هنالك وراء هذه المودة المصطنعة أكثر مما تبصره العين!"

وما زال الخطيب يتابع خطبته: "قد أعجبتنا النهضة الفنية التي تشهدها المدينة مؤخراً ، وأحببنا إبداعاتكم ، ولكن هل لكل هذا قيمة ؟!"

عقد الحضور حواجبهم ، وتبادلوا النظرات المتسائلة والمتعجبة ، وعندما بدأت أصواتهم ترتفع أعاد الخطيب سؤاله بصوت أعلى وبصيغة أخرى كي يهدئ الجموع: "ما قيمة الفن عندكم ؟!"

وعندما بدأت عقول الحضور معالجة السؤال هدأت أصواتهم ؛ فتابع الخطيب حديثه مسرعاً: "إن الفن بأنواعه يسحركم لأنكم لا تفهمونه ، وقيمته تقتصر وحسب على صناعه والمعجبين به وهم قلة ، لكن ما الذي يهم رجلاً خرج يعمل ليعيل عياله وزوجته بشأن الفن ؟ لماذا يجب عليه أن ينفق كثيراً من ماله ليشتري لوحات ويعلقها دون أن ينظر إليها ، أو أسطوانات موسيقية يدمن تشغيلها دون أن يشعر بوجودها أو

يأبه بأنغامها ؟ أليس الفن مجرد مظهر من مظاهر الترف خدعكم به صناعه كي تفيدوهم وأنتم لا تشعرون حتى بأهميته ؟ ألا تشعرون أنكم خُدِعتُم ؟!"

خيم الصمت المطبق على المكان ، واستمر تبادل النظرات المتعجبة بين الحضور ، وتابع الخطيب: "وماذا عن الأدب ؟ ما فائدة أن تشتري كتباً عدة لا تقرأ نصفها وتضعها في مكتبتك ليقال وحسب أن لديك مكتبة ، أحقاً تحب أن يفرض عليك أولئك المثقفون أفكارهم دون أن يتركوا لك حرية تعبير أو إنشاء لمنظومتك الفكرية الخاصة ؟ أعليك دائماً أن تكون تابعاً ؟!"

بدأت بعض الأصوات تصيح موافقة على حديث الخطيب ؛ مما جعله يدرك أنه قد تغلغل في أذهانهم وبناء على ذلك يفجر قنبلته الأكبر: "والدين! هل صلواتكم في دور العبادة وتذللكم لإله يترك بعضكم جوعى ومرضى وشحاذين على الأرصفة ينفعكم بشيء ؟ أهذا ما ينقذكم ويشبع بطونكم وبطون عيالكم ؟!"

وكأن كثيرين كانوا ينتظرون قولها ، صاح ما يزيد عن ثلاثة أرباع الجموع: "لا! الفن والأدب والدين لا يحيوننا!"

ولأنه لم يتوقع رد الفعل هذا ؛ انفرجت أسارير الخطيب فأكمل الحديث: "أيها المواطنون ، لقد جئنا لإنقاذكم من العبودية لهؤلاء المنظرين ، وللآلهة الزائفة ، وهذا بكل سلم وتهذيب دون قسوة أو إجبار ؛ فلكم حرية فعل كل شيء لأن الأمر لا يضرنا بقدر ما يضركم..."

وصمت لثانية ، ثم استدرك ما قاله وهو ينهي خطبته كي لا يفسد كل شيء: "...إن جل ما قد يضرنا ؛ هو الأسى على حالكم أيها المواطنون الأعزاء ، ويا قيمة وحقيقة المدينة وسر وجودها! إننا نود لكم أن تقيموا اعتباراتكم للمادة على حساب الروح ، والمحسوس على حساب المعنوي ، إننا نود منكم أن تتفهموا وتدركوا حقيقة أن المال والعمل هما أهم ما في الوجود وأن كل ما سواهما لا قيمة له ، عودوا إلى عملكم وإلى كسب قوت يومكم ، أطعموا أهليكم وحرروا أنفسكم من عبودية أولئك الكاذبين قبل أن ينهبوا عقولكم وأموالكم لحسابهم! هل ستفعلونها ؟!"

وهنا صاح عدد أكبر: "سنفعلها!"

ومنذ هذه الصيحة ؛ لم يظل شيء كما كان عليه...

٥ فبراير - ١٩٦٣م

إن الناظر إلى حال مدينة الروح يجدها قد أصبحت بلا روح!

ثلاث سنوات مرت على تلاعب السياسيين بعقول المواطنين وجعلهم ينبذون الفن والدين والأدب وجماليات الحياة بحجة أن إدمانها يستعبدهم ، ويمنعهم عن غرضهم الرئيسي من الحياة: كسب الرزق والنجاة!

هكذا اختزلوا كل تفاصيل وتجارب الحياة في هدف واحد ينزع عن الإنسان هويته وإنسانيته ، ويجعله لا يختلف كثيراً عن الحيوان ، هكذا أحرقوا أرواح المقيمين بالمدينة وحرموهم طعم الوجود والحياة ولذتهما ، ورغم ذلك فإن الناس لم يحركوا ساكناً على الإطلاق بل اكتفوا بفعل ما يلزم لإعالة من يعيلونهم ، سواء أكانوا أنفسهم أم عائلاتهم ، منتظرين يوم يأذن القدر باختفائهم وحسب!

لا تدري ؛ أهم حقاً أحبوا ذلك أم اعتادوه ، أم أنهم تاقوا إليه منذ زمن وشعروا بأن فرصتهم قد حانت ، ربما عانوا كثيراً لدرجة أنهم ما عادوا يريدون أي مسكنات للألم تعزلهم عن الواقع ؛ بل أرادوا أن يستسلموا لنهاياتهم بصمت ، دون نضال!

أصبحت المدينة باردة رغم مناخها المعتدل ، ولم تعد هنالك حياة لمن تنادي أو من لا تنادي ؛ لم تعد هنالك حياة!

والآن كفانا حديثاً عن المدينة من الخارج ، ودعونا ندخل إليها رويداً رويداً كي نبدأ أحداث القصة.

هناك على جانب الرصيف ، يقع مَرسَمُ شابٍّ يودع عشرينات عمره يدعى "جاكوب والاس" ، والذي كان أحد فناني المدينة المعروفين بمواهبهم الصاعدة - قبل أن يحدث ما حدث وتتبدل الأحوال - أما الآن فهو مجرد نكرة لا يعرفه كثيرون ، ولكنه بطل قصتنا.

مع انهيار قيمة الفن في نفوس الناس ؛ فقد جاكوب سمعته وقيمته تدريجياً كرسام مؤثر ، وما عاد أحد يأبه له أو للوحاته ، اللهم إلا قلة ممن كانوا يعرفونه ويحترمونه وظلوا يبتاعون لوحاته ، وفي رأي جاكوب لم تكن تلك إلا شفقة منهم ، ولكنه رغم ذلك ظل يرسم ويرضى بالقليل الذي يجنيه من فنه الذي لم يستطع أن يقوم بشيء أفضل منه.

كان حال جاكوب صعباً مستعصي الفهم والوصف والحل ، ولكن وصفه لم يكن بهذا القدر من الصعوبة في الواقع ؛ فملخص الأمر أنه كان فاقداً للمشاعر بشكل شبه تام ، أو دعونا نقول أنه كان يحس من وراء قلبه ، وهذا حال وصل إليه بعد أسى كثير تراكم على روحه كالجبل فأفقده نفسه!

إن فرح أو حزن فهو بالفعل فرح أو حزين لكنه لا يشعر بذلك ، لا يلمس هذا الشعور بل يعتاده بملل وحسب ، حتى لوحاته ما عاد يرسمها بتركيز أو إتقان وشغف كما السابق ، وهذا أبسط دليل على أن من يبتاعون منه إلى اليوم يشفقون عليه أو يجاملونه!

كانت الدنيا خالية أمامه وخاوية ، عيناه تبصران المحسوسات أمامه لكن عقله وروحه لا يبصران شيئاً ، لا يؤثر فيه شيء على الإطلاق فتجده لا يطرب لموسيقى أو يتأمل جمالاً أو يتلذذ بقراءة ، مثله مثل الباقين ولكن أسوأ.

وكي لا نتأخر عن الدخول في أحداث قصتنا سنبدأ قصها فوراً ، من ذلك اليوم في بدايات شهر فبراير لعام ١٩٦٣م ؛ عندما دخل مرسم جاكوب صديقه "ألبرت دين" ، كاتب قدير فقد شهرته هو الآخر بعدما انهارت قيمة الأدب بين الناس.

عندما دخل ألبرت المرسم وجد صديقه كما عهده دائماً ؛ يجلس أمام لوحة الرسم شارد الذهن ، مرتدياً قميصه الأسود مفتوح الأزرار العلوية الذي لا يبلى أو يعفو عنه الزمان وقد شمر أكمامه ، وبنطاله الرمادي القاتم ذا الحمالات الطويلة ، وقد هاجت وماجت خصلات شعره الناعم الذي لم يعد لديه شغف أو رغبة في تهذيبه ، دون أن ينسى ملاحظة السيجار الذي يدخنه دائماً منتظراً أن ينهي حياته ذات مرة ، وذقنه

الحليقة وملامحه الحزينة الصامتة ، المظهر المعتاد لجاكوب الذي يجعله يبدو كعامل في مصنع أحياناً أو كبطل عائد من مغامرة أحياناً أخرى!

لكن ألبرت لم ير صديقه على أي من الحالين ، بل كان يراه شخصاً أنهكه كل شيء فما عادت له رغبة في فعل أي شيء ، حتى لو كان بسيطاً كتهذيب شعره أو تغيير قميصه الذي يذهب به يومين من الأسبوع إلى المرسم ، أو مهماً على الأقل للمظهر العام للمرسم كأن ينظف الجدران الملطخة ببعض الألوان ويجد طريقة لإصلاح الأثاث الذي شوهه الغبار وأنهكته الكسور ، أو على الأقل يفعل شيئاً أبسط من ذلك كأن يعيد ترتيب أدواته المبعثرة في المكان ، لكن أياً من هذا لم يفعله جاكوب كون اللامبالاة قد تغلغلت داخل أعماق روحه ، وهذا ما علمه ألبرت دائماً لكنه لم يتعمد إحراج صديقه بالتركيز كثيراً على أمور كتلك!

سمع جاكوب صوت فتح الباب ؛ فالتفت ليجد القادم صديقه ألبرت ويقول متهكماً وقد عاد بصره إلى لوحته: "بالطبع هو أنت يا ألبرت ، الكاتب المثقف المهذب اللبق الذي لا يملك قاعدة الطرق على الأبواب قبل دخولها!"

رد ألبرت بضحكة خفيفة: "لا ثقافة أو لباقة تمنعانني من اقتحام مساحة صديقي المفضل وإزعاجه!"

-قد أتممت مهمتك بنجاح إذن ، اجلس هناك!

أشار جاكوب إلى مقعد في أحد أركان المرسم ؛ فاقترب ألبرت ليجلس عليه قائلاً: "أخبرني إذن...كيف حالك ؟"

-هل تتوقع مني إجابة جديدة ؟!

=...ما زلت لم تجد حلاً للأمر ؟

-كلا.

=لا بأس ، أنا أتفهم ذلك...

-...أعلم أنك تمل مني كل مرة إذ أنني أكون كقطعة من الثلج حين أتحدث فلا تجد إثارة في حديثك معي ؛ فإن أردت أن توفر الوقت الذي سنجلسه نحدق في بعضنا دون كلام فارحل ، لن أنزعج!

=أنا لا آتي إليك لأجل الحديث ، أنا آتي إليك لأنك صديقي ، ولأنني أحب أن أكون بجانبك دائماً حتى ولو كنت أعرف أننا قد لا نستطيع أن نكون معاً مجدداً كالأيام الخوالي!

-...الأيام الخوالي...

=أعلم ، وكلنا نتحسر عليها يا جاكوب.

-ولكننا أحياء في نهاية المطاف...

=لا تتحدث مثلهم يا جاكوب ، أنت لا تشبههم في شيء ، أنت فنان وستظل لك قيمتك في تراث مدينتنا على الأقل بالنسبة لي!

-...أنا لم أعد آبه لشيء!

=...ربما يتغير هذا اليوم يا جاكوب.

-هه ، وكيف له أن يفعل ؟

=أمس كنت أفكر كيف وصل الحال بنا هكذا ، ورأيت أنه من الخطأ أن نصمت نحن الفنانون والمثقفون لأننا بذلك نثبت وجهة نظر الكبار أننا فعلاً كنا نستغل الشعب للكسب المادي والمعنوي من فنوننا وحسب!

-رأيت هذا بعد ثلاث سنوات ؟!

=أن تأتي متأخراً أفضل من ألا تأتي على الإطلاق!

-لكنك أتيت متأخراً جداً وبمجرد فكرة ، إذن فأفضل لك بالفعل ألا تأتي على الإطلاق ، فقط تأقلم مع الأمر ودع الأيام تمر كما يفعل الجميع!

=...بإمكاننا أن ننهي هذه المهزلة يا جاكوب!

-لا تمنح نفسك أملاً زائفاً يا ألبرت ، هؤلاء الناس قد زُرعت فيهم أفكارهم عنا بالسلم ؛ أي أنهم مقتنعون بها ؛ أي أنها لن تتغير أبداً!

=وماذا لو أن من زرعوها سقطوا من أنظارهم ؟!

-...فسر.

لقد أرسلت

=السياسيون زرعوا هذا الهراء في عقول الناس بناء على أمرين رئيسيين: أولهما استخدامهم للطريقة السلمية كي يقنعوهم ، وثانيهما وجهة نظرهم عنا بأننا نستغل الناس بفنوننا ونفسد عليهم حياتهم ، وهذه النظرية قد يكون من الصعب أن نواجهها لكننا سنحاول ، سنواجه أفكارهم بالسلم أيضاً...

-من ؟ أنا وأنت ؟!

=هذه المرة أنت مخطئ ، أنا أتحدث عن كثيرين غيرنا ، إن استطعنا أن نصنع مقاومة سلمية...

-أتستمع إلى نفسك ؟! أم أنك متأثر بأحد كتب السياسة أو التاريخ أم ماذا دهاك تحديداً ؟!

=إنني أستمع إلى نفسي جيداً يا جاكوب ، وبعد كل هذا الوقت أدركت حقاً أنني لست مجرد كاتب وحسب ، بل علي أن أكون حقاً جزءاً من المجتمع وأحارب من أجل كل ما هو خير ، هؤلاء السياسيون نبهوني حقاً إلى ما يجب أن نكون عليه نحن المثقفون والفنانون ورجال الدين ، ولذا حتى ولو كنا سنفعلها متأخراً لكننا سنثبت لهم أنهم على خطأ!

-وإذن...ماذا سيحدث ؟

=أنت فنان يا جاكوب وأنا كاتب ، ومنا كثيرون يفترض أنهم كانوا مؤثرين في المجتمع ، سنخوض رحلة للبحث عنهم وجمعهم على هدف ورؤية واحدة ، وننطلق!

-...الأمر عشوائي جداً يا ألبرت...

=سننظمه يا جاكوب ، اللعنة! دعنا نفعل شيئاً صحيحاً ونصنع لنا إرثاً حقيقياً!

-...رغم أنني متأكد أنه لا بد وأنك متأثر بقراءة كتاب ما لكنني معك إلى أن يحدث المتوقع ونفشل ، وعندها عليك أن تعدني أن تتركني لحالي وتتوقف عن تسليم نفسك لهذه الأفكار الخزعبلية!

=هه ، حسناً يا جاكوب ، لا بأس...لك هذا!

-حسناً ، أهذا كل شيء ؟ أعني ؛ ألنا نقطة بداية محددة ننطلق منها ؟

=نعم ، سنزور صديقنا "سباستيان لوك" كبداية ونحدثه عن الأمر.

-سباستيان الموسيقيّ ؟ وما شأنه بهذا ؟

=حسناً ، أنت قلتها ؛ إنه موسيقي ، وكما أخبرتك سيكون علينا كبداية أن نجمع كل من نعرفهم من المؤثرين...أو على وجه الدقة من كانوا مؤثرين في السابق.

-هذا يفسر الأمر إذن...حسناً يا ألبرت ، أنا معك متى ما قررت زيارته.

=هذه هي الروح يا صديقي!

١٧ فبراير ١٩٦٣م

بداخل ذلك المنزل الفخم الذي كانت واجهته من الحجر الجيري الأبيض ومزينة بأعمدة يونانية ، وتحديداً في غرفة فسيحة أرضيتها من السيراميك الرخامي ناصع البياض ، جلس رجل فخم المظهر على طاولة تدلى معطفه الأسود الطويل من ورائها أمام البيانو الضخم الذي توسط الغرفة ، وفي أحد أركانها أيضاً على مقعدين مطرزين جلست امرأة حسناء وفتاة صغيرة ، وقد جعل ضوء الشمس النافذ من النوافذ العالية بالغرفة وجهيهما ينيران كأنهما شمسان أخريان وهما تستمعان إلى عزف الرجل المدغدغ للأسماع والأرواح ببهجة وفخر شديدين!

وفجأة قطع عزف الرجل وتمتع السيدة والفتاة به صوت طرقات على باب المنزل ؛ فقالت الفتاة منزعجة: "لماذا قد يأتي زوار الآن ؟ لا أريد أن يوقف أبي عزفه!"

ضحكت السيدة قائلة: "وأنا أيضاً لا أود له أن يتوقف ، لكنه عليه الآن أن يفعل ذلك لوقت قصير!"

قام الرجل واقترب منهما بابتسامته الجذابة ، وطبع قبلة حانية على جبين كل منهما ثم قال: "لا يأتينا في العادة زوار كثيرون ؛ لذا فغالباً لن أطيل!"

وتوجه بعدها نحو الباب ليفتحه ويجد ألبرت واقفاً بانتظاره ، وعندما رآه حياه مبتهجاً: "ألبرت! لم أرك منذ فترة أيها الأصلع ، أنسيتني أم ماذا ؟!"

رد ألبرت ببهجة وسخرية مماثلتين: "على الإطلاق يا سباستيان ، كيف لي أن أنسى شاربك الخالد ووكر الثعابين الناعمة في رأسك ؟!"

قهقه سباستيان ضاحكاً: "وكر ثعابين ناعمة! هه! إنه حقاً تشبيه بلاغي رائع لشعري ، تشبيه لا يخرج إلا من فم كاتب يحترف التلاعب بالألفاظ بالفعل!"

ثم نظر إلى شخص كان يقف بعيداً عنهما ببضع خطوات ويدخن سيجاراً ، ولم يعرفه ؛ فسأل ألبرت بفضول: " من هذا الواقف هناك ؟!"

أجابه ألبرت بهدوء: "لم أتوقع أن تعرفه بصراحة ، إنه صديقنا جاكوب ، وقد أتى معي ليحييك ولكنه آثر التدخين خارجاً لأنه يتذكر أن الدخان يؤذي زوجتك وابنتك."

اندفع سباستيان نحو جاكوب صائحاً: "جاكوب! أنت يا عاشق الألوان اللعين! كم افتقدتك يا رجل!"

ابتسم جاكوب وهو يقترب أيضاً ليحيي صديقه: "أشكرك يا سباستيان ، هذا قول مهذب منك!"

عقد سباستيان حاجبيه وهو ما زال يتأمل ملامح وجه جاكوب التي خلت من البهجة ، وكتم ضيقاً في نفسه وهو يسأله: "ما زلت لم تجد للأمر حلاً؟!"

رد جاكوب ببروده الأبدي: "كلا."

تنهد سباستيان بضيق ورد: "آمل أن تجده يا جاكوب ، أنت تعلم أنني أفعل!"

وهنا اقترب ألبرت منهما وقال موجهاً حديثه إلى سباستيان: "جئنا للتحدث إليك بشأن أمر ما ، إننا نحتاجك."

-تحتاجان إلي ؟ ولِمَ ؟!

=لا أدري كيف أصوغها لك بشكل صحيح...لكنني على الأقل سأمهد لك...

-قل ما تود قوله يا ألبرت ، أياً كان!

=...عندما سلبنا الكبار قيمة الفن...

-لكنهم لم يسلبوني أنا إياها ؛ فحتى اليوم ما زلت أعزف لأجل زوجتي وابنتي ، ولأجل نظرات الفخر والبهجة في عيونهما ، ولأجل أن أشعر أنني ما زلت حياً ؛ فالموسيقى عندي هي لغة الروح ، إن توقفت فسأعلم أن روحي قد فقدت قدرتها على الحديث وربما تكون قد انتهى أمرها!

=هذا رائع يا سباستيان ، وجميل أنه لديك أشخاص مستعدون للإيمان بك...لكن ليس الكل مثلك!

قالها ألبرت وهو ينظر إلى جاكوب ؛ فوجه سباستيان بصره إليه هو الآخر ليجداه يقول لهما: "إن لمحت في وجهيكما تعبيراً واحداً يدل على الشفقة فسأرحل!"

قال ألبرت مسرعاً وقد تدارك خطأه: "لست أعني جاكوب وحسب ، بل أعني المدينة كلها ؛ فقد ضاعت مكانة الفن والأدب والثقافة في قلوبهم منذ زمن وأصبحت المدينة مظلمة...مظلمة جداً يا سباستيان بالنسبة لكثير أمثالنا لا يستطيعون أن يروا وسط عتمتها!"

تساءل سباستيان: "نعم ، وإن يكن ؟!"

=...فكرت أن نقوم بثورة سلمية صغيرة ، أو حركة ما تتآزر فيها جهودنا بهدف إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه!

-لكن هذا قد يستفز الكبار!

=وهو المطلوب كي يرى الناس وجههم الحقيقي! كما أننا إذا ظللنا هنا لا نفعل شيئاً سنثبت للناس وجهة نظر الكبار بأننا نستغلهم!

-وإن فعلنا شيئاً سنثبت أننا نستغلهم أيضاً ونخشى ضياع أرزاقنا ، الأمر في كلا الحالتين ميئوس منه يا ألبرت!

=...لكني لا أراك تعارض الأمر كثيراً يا سباستيان!

-لأني أدرك أنه حتمي نوعاً ما ، لكنه وإن جاء فسيكون قد أتى في ظروف سيئة ، لكن...إن أردت ذلك حقاً...سيكون جاكوب معنا ؟!

=نعم بالطبع ، أقنعته منذ بضعة أيام بصعوبة على عكسك!

-دعه إذن مع سيجاره هذا وأخبرني ، ما الذي تنويه تحديداً ؟!

=مجرد هوامش فكرية حتى الآن ، لكن هدفيّ الرئيسيين هما أن نعيد ثقة الناس بما ضاعت ثقتهم فيه ، وأن نبرز الوجه الآخر للكبار كي نشجع السكان على الثورة ضدهم!

-...وهل هنالك خطوة بداية معينة ؟!

=الخطوة حتى الآن أن أجمع من أعرفهم من الفنانين والمثقفين ، وهأنذا قد وجدتك أنت وجاكوب ، ونحن الثلاثة رُسُل الأدب والثقافة ، والموسيقى والفن ، وبهذا يتبقى لنا...

-...أتتوقع مني إجابة ؟!

=بل أعصر دماغي...أوه أجل ، فلسفة ودين!

-مم ، وهل لديك خطط محددة لهذا ؟

=الفلسفة...نعم ، هنالك شخص قد يساعدنا.

-ومن يكون ؟ أهو صديق لنا كجاكوب ؟

=ليس حقاً ، إنني أحدثك عن "برايان أوزوالد".

-لم أسمع به!

=بالطبع لم تفعل! حسناً ، برايان هذا عرفته في بداياتي الأدبية ، دعنا نقل أنه كان معلمي لبعض الوقت قبل أن يترك تدريس الفلسفة ، لكننا ما زلنا نتبادل الخطابات إلى اليوم ، وأذكر أنه كان شخصاً ذا طباعٍ ثورية تمردية ؛ وهذا ما يجعلني أظنه سيحب ما نريد أن نفعله!

-أتظن أنه ما زال كذلك ؟ أم أنه كان منافقاً وحسب وليس مستعداً لأن تطابق أفعاله أقواله ؟!

=رغم أن أموراً كتلك أصبحت شائعة الحدوث مؤخراً لكن لنأمل ألا يكون الأمر هكذا!

-لا بأس إذن يا ألبرت ، إنني معكما...هل ستراسل معلمك هذا أم أنك...

=لا لا ، سنقابله!

-نقابله ؟ بالجمع ؟

=نعم ، ربما في نهايات هذا الشهر سأكاتبه مجدداً لنحدد ميعاداً للقاء.

٢٥ فبراير ١٩٦٣م

بعث ألبرت برسالته إلى برايان يطمئن على أحواله ، ويسأله عن وقت ومكان مناسبين للقاء مع صديقين له ، ويشرح له أسباب هذا اللقاء وماذا سيكون موضوعه تحديداً ؛ آملاً من أعمق أعماق نفسه أن يوافق.

احتاج ألبرت فيلسوفاً كي يضع نظريات وأسس الحركة التي ينوون القيام بها ، وكي يصنع لها رؤية وفلسفة تنبثق منها كل أفعالهم ، ولم يجد بالطبع من هو أفضل من معلمه السابق لمادة الفلسفة الذي عرفه في أيامه الخوالي في الجامعة ، الأستاذ برايان أوزوالد ؛ فهو من أكثر الناس الذين يعلم ألبرت أن لهم بصيرة وفِكراً عقلانياً وثورياً يهدف لتحسين الحياة في الوقت نفسه - مثله مثل أغلب الفلاسفة - وربما تخطيطياً واستراتيجياً في بعض الأحيان ؛ وهذا ما جعله يراه الشخص الأمثل ليحادثه في أمر كهذا ، بل إن هذا جعله يراه فيلسوفاً أكثر منه أستاذاً.

وأما العلاقة بينهما فكانت وطيدة ؛ فألبرت ينسب الفضل في تكوين شخصيته النقدية والأدبية إلى معلمه ، وبرايان يعترف أن ألبرت من أفضل الطلاب الذين درس لهم يوماً ، حتى إن التواصل بينهما لم ينقطع بشكل رسمي بعد أن تخرج ألبرت وإنما ظلا يتكاتبان من وقت لآخر ؛ ليطمئنا على أحوال بعضهما ويتناقشا في أمور تليق أن يتناقش فيها كاتب مع فيلسوف!

لحسن الحظ لم تمر سوى بضعة أيام قبل أن يبعث برايان برده إلى ألبرت ، والذي كان إيجازه موافقته وتحديده لمنزله كمكان للقاء ، وتحديده لبضعة أيام يكون متفرغاً فيها كميعاد ؛ وبالطبع فرح ألبرت لهذا فرحاً شديداً ، وأعلم صديقيه بالأمر واتفقوا معاً على يوم وتوقيت يذهبون إليه فيه.

وبالفعل أتى يوم اللقاء وساعته ، واستقبل الأستاذ تلميذه وصديقيه استقبالاً حاراً ، وأدخلهم بيته البسيط الذي كانت غرفه وأركانه غارقة في الكتب بسبب أو بدون سبب ، ثم أجلسهم على أريكة مهترئة تتسع لثلاثة أفراد ، وأحضر هو كرسياً خشبياً لا

ظهر له وجلس عليه أمامهم ، لم يقدم لهم طعاماً أو يعرضه عليهم كونه ميسور الحال ، وهذه نقطة نبه ألبرت صديقيه إليها قبل قدومهما ؛ لئلا يظنا أنها قلة تهذيب منه أو يحرجانه بغير قصد.

تأملوا هيئته ملاحظين اهتمامه بهندامه رغم بساطة معيشته ؛ فمن كان ليصدق أن هذا الرجل مصفف الشعر ذا النظارة المستديرة الذي يرتدي بذلة أنيقة وكان أستاذاً جامعياً مرموقاً يوماً ما يسكن في مكان بهذه الهيئة البسيطة والفوضوية ؟!

وقبل أن يبدأ أحد من ثلاثتنا الحوار وجدا برايان يقول بحماس وحزم: "أياً كان الهراء الذي تنوون فعله فأنا معكم فيه!"

عقد جاكوب وسباستيان حواجبهما ونظرا إلى ألبرت وهما يبتسمان ؛ فقال لهما بثقة: "أخبرتكما أنه سيوافق!"

ابتسم برايان هو الآخر ، وأردف: "يبدو أن رفاقك قد راودهم شك في ، لكني أسامحهم عليه ولا ألومهم ، والآن أنا منصت لكم يا أولاد ، قولوا ما تودون قوله!"

حكى ألبرت كل شيء مجدداً بحضور صديقيه ، وشرح له ثانية ما يفكر فيه ، وحاجتهم إلى من يصنع رؤية وفلسفة للحركة ؛ فأخذ برايان يحك ذقنه لبضع ثوان قبل أن يقول: "بدايةً ، ربما تتساءلون جميعاً عن سبب توجه الحكام المفاجئ وتحولهم وجعل الناس يتحولون معهم ، حتى لو مر على الأمر بضع سنوات لكن ما زال بإمكاننا أن نخوض حديثاً عنه ، فهل تعلمون السبب الذي قد يجعلهم يفعلون هذا ؟!"

هزوا أكتافهم علامة عدم علمهم ؛ فأخبرهم: "المادة ، دائماً كانت وستظل المادة ؛ إن توجه الناس وانشغالهم واهتمامهم في الماضي بالفن والأدب والدين كان يضعف خزينة الدولة ، ودفاع المواطنين عن الفنانين والأدباء ورجال الدين كان يجعل هؤلاء ذوي حصانة ضد الحكام ؛ فلم يقدروا على فعل أي شيء ؛ وهذا بدوره أعطى صفوة المدينة أولئك فرصة كي ينهبوا أموال الناس ويستغلوا إدمانهم لمخدرات الحياة تلك ؛ فانتهز الحكام الفرصة ولعبوا لعبتهم القذرة وأوصلونا إلى ما نحن فيه ، أيبدو لكم هذا منطقياً ؟!"

رد سباستيان: "قد يكون أكثر تبرير منطقي سمعته لهذا الهراء الذي فعلوه!"

أشار برايان إلى سباستيان بإصبعه مبتسماً: "بالضبط ، ولذا ستقوم حركتنا على عنصرين أساسيين..."

قاطعه جاكوب: "نظرة الناس إلينا وإلى الحكام."

أشار برايان إلى جاكوب بإصبعه هو الآخر مبتسماً: "بالضبط ، ولذا فمن هذين العنصرين تنبثق مهمتين رئيسيتين: أن نحسن صورتنا أمام الناس ، وأن ندمر صورة الحكام في أعينهم ، ومن هاتين المهمتين سينبثق فكرنا وتخرج رؤيتنا بشأن حركتنا تلك."

قال ألبرت مجاملاً: "إننا نعلم أنك خير من يستطيع مساعدتنا في هذا الأمر يا سيدي ؛ ولذا لجأنا إليك."

ابتسم برايان وهو يشعر ببعض الفخر ، ورد: "أشكرك على قولك في حقي يا ألبرت ، إننا الآن ببساطة وكخطوة أولى نحتاج إلى أن نحصي رمزيات كل ما ضاعت قيمته ، وبصيغة أبسط أقصد أن كلاً منا يمثل أمراً معنوياً ما قد ضاعت هيبته من المجتمع ؛ أنت يا ألبرت تمثل الأدب والثقافة ، وأنت يا...سباستيان على ما أظن ؟ نعم ، هذه ملابس موسيقار ثري بالتأكيد! فأنت إذن تمثل الموسيقى ، وأنت يا...جاكوب ، أهذه ملابس عامل في مصنع أم ماذا يا رجل ؟! المهم أنك تمثل الفن بلا شك ، وأنا الفلسفة ، وأظننا هكذا قد اكتملنا!"

والملاحظ هنا أن سباستيان ابتسم بمرح إثر مزحة برايان ، أما جاكوب فكان كثلوج الشتاء مما جعل الرجل يكتم ضيقاً في نفسه ، لكنه زال تقريباً عندما تذكر ما قاله ألبرت له عن جاكوب في رسالته الأخيرة ؛ فعذره الرجل في قرارة نفسه.

مرت بضع ثوان من الصمت والتفكير ، وفجأة قطعه ألبرت: "ينقصنا رجل دين!"

أومأ جاكوب وسباستيان علامة الموافقة ، لكن برايان عقد حاجبيه قائلاً: "لست حقاً من أنصار الدين...ليس كثيراً!"

تعجب الثلاثة وخاصة ألبرت الذي قال باستنكار: "غريب! أنت لم تأت على ذكر هذا الأمر سابقاً!"

-هأنذا أفعل!

=لكن ماذ يعني هذا ؟ ألا تؤمن بإله ؟!

-ليس حقاً...!

=...حسناً يا سيدي ، إن الإجماع ينتصر ؛ لذا فسيكون عليك أن تحاول الإيمان بواحد!

١ مارس ١٩٦٣م

أخبر سباستيان رفاقه بأن يتركوا مهمة إيجاد رجل دين له ، واستغرق وقتاً إلى أن اهتدى إلى واحد يقولون عنه أنه لا يشبه بقية رجال الدين في شيء مما يفعلونه من تقديس للمادة على حساب الروح والتجربة الإنسانية الداخلية ؛ فأدرك أن هذا النوع من رجال الدين هو المنشود وقرر أن يذهب مع رفاقه ليقابله.

كان اسمه "ماثيو دانيال" ، ويسكن في منزل ورثه عن عائلته الثرية ، لكنه قرر أن يزيل أغلب زينته ويُبَسِّطَ مظهره ومعماره ؛ معللاً ذلك أنه لا يحب المبالغات والزخارف الكثيرة التي تنزع عن المنازل قيمتها الحقيقية كأماكن للحياة ودفء الذكريات ، وتجعلها مجرد آثار ومعالم يتباهى بها الأثرياء!

وهكذا تواصل سباستيان مع رفاقه وأخبرهم أنه وجد الرجل المنشود ، وعلم عنه أنه هادئ الطباع طيب القلب يحب الرفقة والزيارات ؛ فحددوا سوياً يوماً وساعةً لزيارته وإقناعه بالانضمام إلى حركتهم.

وفي الميعاد المحدد كان الأربعة يسيرون متوجهين نحو منزل ماثيو ، ويتأملون الشوارع والناس من حولهم وقد أصبحوا بلا روح أو وجود ، مغمورين بمشاعر الوحدة في وسط هذا الفراغ الشاسع الذي يشعرون أنهم الوحيدون الأحياء فيه!

فكان خلو الشوارع من المعنى يلهم ألبرت بأفكار لكتاباته ، وأصوات الطيور والطبيعة ومشاعر الحزن لما أصاب المدينة تلهم سباستيان بألحان لمقطوعة موسيقية ، وكل ما يدور حرفياً ويرونه في طريقهم يجعل برايان يعيد تفكيره وتساؤلاته الوجودية عن أمور وقضايا عديدة ، وحتى السماء كانت تلهم جاكوب رغم انعدام مشاعره بفكرة ما للوحة!

وأخيراً وصلوا إلى وجهتهم ؛ ليجدوا ماثيو واقفاً أمام شجرة كبيرة أمام المنزل ؛ فدنوا منه ولمحهم وهم يقتربون فدنا منهم بدوره محيياً إياهم بابتسامة: "مرحباً يا شباب! هل أعرفكم من مكان ما ؟!"

بدا من ملامح وجهه وشعره المصفف القصير وبشرته الخالية من التجاعيد أنه لا يزال في أيام شبابه ، أو ربما يودعها ، لكن رداءه الطويل الأسود القاتم كان يضفي على مظهره هيبة ووقاراً ، وربما بضع سنوات فوق عمره الأصلي حتى!

رد سباستيان: "كلا يا سيد ، لكننا سألنا عنك وسمعنا أموراً محمودة ، وجئنا كي نتحدث معك بخصوص أمر ما!"

سأله ماثيو وقد عقد حاجبيه لكن الابتسامة لم تفارق وجهه: "وما الذي قد يريده أربعة مثلكم من رجل دين لا يعرفونه ولا يعرفهم ؟!"

حكى سباستيان سريعاً كل شيء فهمه من أفكار ألبرت ، وعرفه بنفسه وبرفاقه ، وهز ماثيو رأسه موافقاً بعد أن استمع وقال بنبرة صعب أن نظنها تخلو من الأسف: "بارك الرب صنيعكم يا شباب ، إنني أدعمكم في فكرتكم ولكن ليس في توقيتكم ؛ لقد وصلتم متأخرين جداً!"

رد ألبرت بمرح: "هذه ليست أول مرة نسمع فيها هذا! لكن أن نأتي متأخراً أفضل من ألا نأتي على الإطلاق!"

=أوافقك الرأي ، وعلى أية حال سواء أكنتم ستحظون بدعمي أم لا ، أعيدوا على ما تنوون فعله تحديداً؟

-مقاومة سلمية يا سيدي.

=باركم الرب ؛ فالمسالمون دائماً هما الأقوياء لأنهم على حق ، والحق قوة أينما كان ومع أي كان!

اعترض برايان بتحدٍ واضح: "ألا يقول نيتشه أن الضعفاء يظنون أنفسهم أخياراً لأنه ليس لديهم مخالب ؟!"

عقد ماثيو حاجبيه وهو يرد بأدب: "ملاحظة هامة يا سيد برايان ، لكن يمكن لنيتشه أن يقول ما يقول فكلامه ليس مقدساً أو صالحاً للتعميم مثله مثل كل الفلاسفة ، مع احترامي لآرائهم بالطبع ، إن من القوة أيضاً أن يختار الإنسان أن يكون خيراً رغم أن

درب الشر أسهل عليه وأقل مشقة ، وصدقني يا سيد برايان ؛ كل إنسان على وجه البسيطة حتى لو كان مبتور الأطراف يستطيع أن يحمل بفمه مسدساً ويحاول ضغط الزناد بلسانه إذا اضطرته الحياة إلى ذلك ، وتبقى المسألة مسألة اختيار فعل هذا من عدمه ، إن القوة التي أتحدث عنها ليست هي قوة البطش في مواجهة العدو وإنما قوة التحكم في شياطينك ، ولأن الشر دائماً والبطش من أفعال الأشرار ، أترى أنه علينا إذن أن نخرج مخالبنا كي يظن الجميع أن مقاصدنا ليست نبيلة ؟!"

بدا الخجل على وجه برايان ؛ فاستدرك ماثيو بسرعة: "أنا لا أتعمد إحراجك ، بل وأرى أن كلام نيتشه قد يكون صحيحاً في حالات عدة ، لكنك استشهدت بقول أظنك - مع احترامي - تحفظه ولا تفهمه ، إن كلامه ينطبق على حالات لكنه لا يشكل قاعدة ، أفهمت مقصدي يا سيد برايان ؟"

غمغم برايان بضيق وخجل: "نعم...وصلني مقصدك!"

نظر ألبرت إلى أستاذه بضيق كونه لا يحب أن يراه في موقف مخجل ، بينما تابع ماثيو وهو يشير إلى الشجرة الكبيرة: "هذه الشجرة بدأت رعايتها منذ سنوات وكانت أصغر من ذلك ، لكنها ببركات الرب وبجهودي وبأموال أنفقتها من أجلها أصبحت كما ترون ، فهل سنصبر ونركز على نمو فكرتنا بهذه الطريقة ؟!"

أجاب سباستيان: "سنفعل يا سيدي."

أومأ ماثيو برأسه علامة الرضا: "جيد ، إذن أنا معكم!"

وهكذا حيا الأربعة ماثيو ووعدوه أن يرسلوا إليه عندما تتجدد رغبتهم في اللقاء ، ثم رحلوا تاركين إياه وحيداً يتأمل شجرته.

وفي الطريق قال ألبرت مهوناً على أستاذه: "لا بأس يا سيد برايان ، لا أودك أن تشعر بضيق..."

قاطعه برايان: "أنا أشعر بالضيق لأنه على حق ، ولأنني شعرت بالاشمئزاز منه لكونه رجل دين ونسيت مبادئي التي أؤمن بها ، وتحديداً مبدأ أن الحكمة من حق كل

إنسان حتى لو كان مزارعاً في حقله ، هذا الخطأ الأحمق الذي وقعت به لا يجب أن يتكرر ، عندما نقرر البدء ويصبح هذا الرجل معنا...سأحاول أن أجبر نفسي على احترامه!"

ابتسم ألبرت إعجاباً بأخلاق أستاذه ، وتابع الأربعة مسيرهم وهم يتحدثون في أمور أخرى ، وقبل أن يفترق كل منهم عن الآخر سأل برايان: "بالمناسبة ، إن كنا حقاً سنبدأ شيئاً كبيراً سنحتاج لمال..."

قاطعه سباستيان: "لا تقلق بهذا الشأن ؛ إنني وغد ثري!"

ضحكوا جميعاً عدا جاكوب ، وسأل برايان مجدداً: "وسنحتاج كثيراً من الداعمين و..."

قاطعه ألبرت: "لا تقلق بهذا الشأن ؛ إنني وغد اجتماعي!"

قال سباستيان مسرعاً: "وأصلع!"

قهقه الجميع ضاحكين عدا جاكوب ، الذي ضحك ضحكة خفيضة هذه المرة ، وعندما افترقوا جميعاً وبقي جاكوب وحده في طريقه إلى المرسم أخرج سيجاراً ليشغل نفسه به ، وحاول أن يستحضر ما حدث منذ قليل في الطريق ويجبر نفسه على الضحك حتى لو كان زائفاً ، لكنه ورغم محاولاته المستميتة فشل!

الفصل الثاني

شؤون داخلية

١ مارس ١٩٦٣م (٢)

في طريق عودته وحده ، كان جاكوب يتفكر كعادته في كيفية عمل الزمن ، ويتعجب من كونه نسبياً رغم ثبات مساره ؛ فالمسافة التي قطعها قبل قليل مع رفاقه أطول من المسافة التي يقطعها الآن عائداً إلى مرسمه ، ورغم ذلك فقد شعر أن الوقت مر أسرع حينها مما يمر الآن عليه دون أحد معه ، وقاده تأمله إلى احتمالين: إما أن شعور المرء بالزمن هو النسبي ، أو أن الزمن كيان حي حقاً ويحب إلقاء النكات ، والاحتمال الثاني نفسه كان مزحة من عقله بالطبع!

وبالقرب من مرسمه على جانب الرصيف ، رأي ثلاثة رجال يقفون أمام المكان ؛ فدنا منهم متعجباً وهو لا يعرف ملامحهم ، ولم يظن حتى أنهم زبائن أتوا من أجله خصيصاً ، وقد كان بالفعل ؛ فعندما أصبح على مقربة منهم شمر أحدهم ذراعيه وهو يقترب منه قائلاً: "أخيراً أتيت أيها الكذاب! إننا ننتظرك منذ مدة!"

وتبعه الرجلان يتقدمان بنفس الأسلوب العدائي ؛ فسألهم جاكوب ببرود لم يكن مصطنعاً على الإطلاق: "لأي غرض ؟!"

رد الرجل ساخراً: "كي نلقنك درساً ؛ فأنت أحد أولئك النصابين الذين ظننا أننا تخلصنا منهم ، لكن يبدو أنه سيكون علينا شعب هذه المدينة المباركة أن نجد ما تبقى منكم من فضلات لننظف شوارعنا منه!"

رد جاكوب بنفس البرود: "لا بأس ، فقط كن سريعاً لأنني أود النوم!"

استفز الرجلَ برودُ جاكوب ؛ فسدد إليه لكمتين قويتين في وجهه وتعجب من صمود جاكوب أمامهما ، بل وبروده التام الذي كان قد بدأ يقلق الرجل فعلاً ؛ فقال له: "أنا لا أدري ما إذا كنت غبياً أم ضعيفاً لكنني أخبرك أنه سيكون عليك على الأقل أن تحاول تخطينا إن كنت تريد النوم ، عليك أن تقاتلنا!"

رد جاكوب ببروده الأبدي: "إن فعلت تتركونني وحدي إذن ؟!"

رد الرجل ساخراً: "نعم ، ربما نتركك ميتاً أو ممزقاً لكننا سنتركك!"

وهنا جذب جاكوب رأس الرجل سريعاً نحو ركبته اليسرى صادماً وجهه بقوة آلمته حقاً ، ثم سدد إليه لكمة قاسية في قفصه الصدري جعلته يسقط على ركبتيه على الأرض متألماً ؛ وإثر رد الفعل الرهيب ذلك اندفع الرجلان بسرعة نحو جاكوب ليقاتلاه ؛ فاندفع جاكوب نحوهما بدوره وصدم رأسيهما ببعضهما قبل أن يفكرا في أي شيء ليشل حركتهما ، ثم أمسك بيده اليمنى الرجل الأيمن من ياقته وظل يكيل إلى وجهه اللكمات حتى أدمى أنفه وتركه يسقط على الأرض متأوهاً ، وتحول بعدها سريعاً إلى الرجل الأيسر فجذبه بكلتا يديه من ياقته وضربه برأسه بقوة مرتين متتاليتين ، ثم سدد خمس ركلات نحو منطقة ما تحت الحزام جعلت الرجل يصرخ باكياً كطفل صغير قبل أن يسقط مهزوماً كصديقيه ، وتركهم جاكوب بعدها بكل برود ودخل مرسمه ، وقد أصبح الثلاثة على الأرض لا يدري أي منهم أين يجب أن يضع يديه ليخفف الألم!

٤ مارس ١٩٦٣م

"اللعنة يا جاكوب ، إنك ستفسد كل شيء بما فعلته!"

صرخ ألبرت وهو يدق المنضدة بيديه في اجتماع الخمسة رفاق في غرفة مكتبه البسيط بعد بضعة أيام من الحادث الأخير الذي حكاه جاكوب عندما أتوا ، ورد جاكوب: "لا تبالغ يا ألبرت ، أنا لا أحب هذا!"

تابع ألبرت صراخه العصبي: "من الذي يبالغ الآن بحق الجحيم ؟! إن الأمر كله يعتمد على أن نحسن صورتنا أمام الجميع ، من الطبيعي أن نجد من يستفزوننا كي..."

صرخ جاكوب هو الآخر: "إن كان الأمر طبيعياً بالنسبة لك فلِمَ لَم يتنبأ به أي عبقري منكم ؟! أكنت تريدني أن أتركهم يهشمون وجهي ويضيعون علي وقت قيلولتي كي أحسن صورتنا اللعينة ؟!"

ساد الصمت في المكان ، وقطعه ألبرت بقوله بعد أن هدأ: "التضحية ، التضحية هي ركيزة لحركتنا..."

قاطعه جاكوب: "الكلام سهل ، دعنا نرى ما الذي كنت ستفعله لو كنت مكاني!"

صاح ألبرت مجدداً لكن بحدة أقل من صراخه في بداية الحديث: "إنني أفعل هذا الهراء من أجلك!"

ساد الصمت مجدداً لكن النظرات المتعجبة والمتسائلة زينته هه المرة ؛ فتدارك ألبرت: "أنا لا أعني أنه لأجلك بشكل مطلق ، فهذه حركة ثورية سلمية عامة ، لكني أقصد أن فكرة بدايتها أتتني عندما رأيت ما حدث لك!"

مرت بضع ثوان قبل أن يتساءل برايان: "وما المشكلة أصلاً إن كان الأمر لأجله ؟!"

نظر الجميع إليه متعجبين بما فيهم جاكوب ؛ فتابع موجهاً حديثه إلى جاكوب: "أنت مثل من نحاول إصلاحهم أيها الشاب ، لكنك أسوأ حالاً منهم إذ أنك لم تستطع أن تتخلى عما تحب ، أنا لا أقصد أن أسيء إليك لكنني أشفق عليك وحسب!"

رد جاكوب بضيق: "وهل الشفقة والإساءة أحدهما أفضل من الآخر ؟!"

فتح برايان فمه ليتحدث لكن ماثيو سبقه: "جاكوب هو أهم من فينا هنا ، أنا أعني ما أقول!"

قال سباستيان معقباً: "إنني متفق!"

هدأ الجو العام قليلاً ، وقام جاكوب من مجلسه وتحرك ببطء نحو نافذة ، وأشعل سيجاراً وظل يدخنه لبضع ثوان قبل أن يلتفت إليهم ويقول بضيق يوشك أن يفصح عن بعض الحزن الدفين: "إن شرطي الوحيد لأظل معكم في هذا ؛ ألا ينظرن أحدكم إلى نظرة شفقة مجدداً!"

عقب ماثيو بثبات بينما عقد الباقون حواجبهم وهم يتبادلون النظرات المتسائلة إلى بعضهم: "لكنني عنيت ما قلت يا جاكوب ، ويوماً ما ربما ينتفض هؤلاء الناس لأجلك وليس حتى لأجلنا أو لأجل أنفسهم ؛ فأنت تمثل أسوأ حال قد يصل أحدهم إليه ، وأنا لا أقول هذا شفقةً عليك أو إساءةً إليك ، لكن أيريحك أن تعتبرني أُقَرِّرُ حقيقة ما مثلاً؟!"

رد جاكوب ببرود: "نعم ، يريحني هذا بالفعل."

٦ مارس ١٩٦٣م

لم يكن رفاقنا الخمسة في الواقع جاهزين بعد لأي شيء ، ربما يمكن أن نُرجع هذا إلى توترهم الطبيعي جداً ، وخوفهم من الفشل ، وكل المشاعر التي تصب في هذا المجرى ؛ ولذا فقد قرروا جميعاً أن يوقفوا لقاءاتهم لبضعة أيام يرتبون فيها أفكارهم ، ويشحذون أبدانهم وأرواحهم لمهمتهم الصعبة القادمة ، و"يُعلِمُ كل مُحِب محبوبَه...أو محبوبته!" كما قال برايان ، وهذا ينطبق على سباستيان وألبرت وحسب!

وبالنسبة لسباستيان فإننا نعلم أن له زوجة ، أما ألبرت فدعونا نتعرف على فتاته في لقائهما الذي حدث في أحد أيام مارس ، بعد آخر لقاء للرفاق.

حدث اللقاء في مقهى عتيق قوي الذاكرة ؛ كونه شهد أياماً وأحداثاً وتغيرات كثيرة طرأت على المدينة وظل على حاله ثابتاً ليحكيها لرواده القدامى الذين يشتهون الحنين إلى أيام يحبونها أو لا يحبونها ، ومن هؤلاء الرواد كان ألبرت وفتاته هيلين التي كانت معجبة كبيرة بمقالاته رغم أنها كما وصفها ألبرت "أجمل وأرق من أن تهتم لأمور كالأدب!" ، لدرجة أنها ذات مرة تجرأت وطلبت مقابلته في هذا المقهى — ولم يكن هذا غريباً على ألبرت الذي كان له بالفعل معجبون كثر يوماً ما — ومن هنا بدأت صداقة ولقاءات متكررة انتهت بوقوع متوقع في الحب!

كان الغروب يقترب كأنه يطلي الأجواء والشوارع والمباني بالذهب ويضيف إليها لمعة يحفظ جمالها كل من يهوى تأمل الغروب بطبعه ، عندما كان ألبرت جالساً على كرسي طاولة في المقهى منتظراً هيلين ، يتأمل الغروب ويفكر في أمور الحركة ، وكيف سيفاجئ هيلين بالأمر وهل سيجعلها الأمر فخورة به أم لا!

وكان ظنه أن الوقت قد تجمد ولم يعد يمر قبل أن تأتي هيلين أخيراً وتدلف إلى المقهى ، وقد كانت في عقل ألبرت لحظتها هي القطعة الأخيرة التي تنقص لوحة الغروب العذب والمقهى العتيق كي يكتمل جمالها ، بفستانها الأبيض وسترتها الزرقاء أثارت إعجاب ألبرت ككل مرة رآها من قبل فيها!

ابتسمت ما إن رأته واقتربت منه ، نظر ألبرت مبتسماً إلى وجهها المستدير وعينيها الضيقتين الجريئتين وشعرها الأشقر المصفف على جانبي رأسها وهي تجلس على المقعد المقابل له لتقول معاتبة إياه بمرح: "لم تطلب لنا مشروبين كالعادة! دائماً ما تدخل المقهى وتنسى أنه مقهى!"

رد ألبرت: "أنا لا آتي من أجل مشروب بل من أجلك!"

=واو! مجاملة لطيفة كان يفترض أن تحمر وجنتاي خجلاً إثرها ، لكنني اعتدت مثلها منك!

-نعم ، أيام الخجل وبدايات حبنا المجنون تلك قد ولت!

=أجل ، وقد دخلنا مرحلة الملل من بعضنا على ما يبدو!

-كلا ، ليس الأمر مللاً إنما هو...اعتياد ، حال طبيعي...

=مهلاً يا رجل ، إنني أمزح! لا تأخذ كل شيء على محمل الجد هكذا!

-هذا مطمئن!

=وكيف حالك إذن ؟ قلت لي في رسالتك الأخيرة أنك ستخبرني بمفاجأة!

-أما عن حالي فأنا بخير على ما أظن ، وأما عن المفاجأة فأنا لا أدري كيف ستكون ردة فعلك ، وربما لا أدري حتى كيف أقولها بشكل صحيح!

=قل ما توده بأي صيغة ولا ترتب كلامك أمامي ، كلي آذان صاغية لك!

-حسناً...بدأت فكرة مقاومة سلمية مع رفاقي...أعني وضعنا نظريات لمقاومة!

=...مقاومة ماذا ؟!

-ما نحن فيه ، حالنا!

=وما حالنا ؟!

-الإرهاب الفكري الذي فُرِضَ علينا منذ ثلاث سنوات يا هيلين ، وجعلنا نغرق في تقديس المادة على حساب ما كان يثري أرواحنا وأنفسنا وعقولنا من أدب وفن وفلسفة ودين...

=لكن ما حدث لم يكن إرهاباً على الإطلاق يا ألبرت ؛ فقد نبذ الناس كل هذا بإرادتهم!

-أتظنين حقاً أن اختيارهم قد نبع من فهم قويم...

=وما الذي يجعل فهمك قويماً ولا يجعل فهمهم كذلك ؟!

-...إنهم يستخدمون السلام كوسيلة لا غاية ، ويستغلوننا وهم يصنعون منا عبيداً من أجل مصالحهم وحسب!

=أجب عن سؤالي يا ألبرت!

-لا أدري يا هيلين ، لا أدري ، لكن شعوراً راودني أن الناس قد أصبحوا هكذا رغماً عنهم ، أو...أنهم ليس من المفترض أن يكونوا هكذا!

=وبنيت فكرة مقاومة بناء على شعور ؟!

-...هيلين...أنا أعلم أنني على حق!

=من رفاقك في هذا يا ألبرت ؟

-جاكوب وسباستيان ، والأستاذ برايان ، ورجل دين اسمه ماثيو دانيال.

=...الأمر يبدو كقصة رمزية طريفة ؛ فكل شخص منكم يرمز لأمر ما حسب ما أفهم!

-تماماً.

=إذن أتقول لي أن جاكوب معكم في هذا ؟

-أجل.

=...اللعنة يا ألبرت ، هذه معجزة!

-أعلم ، وأود له أن...

=أتفعلها لأجله ؟!

-...كلنا نفعلها لأجله ، ولأجل الجميع!

=...لا تعليق لي على البقية وخاصة أستاذك ؛ فمن حديثك عنه أعلم أنه متهور يحب هذه الأمور!

-يعشقها!

=إذن افعل ما تشاء يا ألبرت ، لن تحصل مني على موافقة أو رفض لكني لا أريدك أن تشعر أني ضدك بشكل تام ، أنا كما تعلم أحب الأدب بفضلك وأقدره رغم أنني أشعر بكوني وحدي التي تفعل بين صديقاتي ؛ لذا فأنا أيضاً لا أحب حال الجميع كثيراً ، لكنني فقط لا أريدك أن تتأذى ، أرجوك ألا تسمح لنفسك أن تضيع مني!

-...سأحاول يا هيلين!

=اللعنة يا ألبرت...لا يجب أن يتذكرك التاريخ لتكون لك قيمة ، كثيراً ما أشعر أن التاريخ عنصري وانحيازي بأية حال ، أنت رجل عظيم حتى لو لم يعلم عنك أحد شيئاً!

-سعيد بأنك ترينني هكذا!

=وسأفعل إلى الأبد ، دعك من التاريخ وهرائه ولنكن سوياً!

-سنظل سوياً لكن بعد أن ينتهي هذا ، أعدكِ!

=هه! أنت عنيد يا ألبرت دين ، ولذا فلا خيار لدي!

-...بشأن ماذا ؟!

=سأدعمك يا ألبرت ، سأعطيك مباركتي! ولكن...أحضر لنا مشروبين أولاً لأستمتع بتأملي لرأسك الصلعاء وهي تعكس لمعة الشمس!

٩ مارس ١٩٦٣م

العاشرة مساءً ، في شوارع مدينة الروح التي أصبح أهلها ينامون بعد انتهاء دوام عملهم دون أن تجعل سهراتهم لليل طعماً كما الماضي ، لا يزال جاكوب وسيجاره مستيقظين!

اكتسب جاكوب عادة السير ليلاً وحده - حتى في أقسى ليالي الشتاء - منذ سنوات طويلة ما زالت ذكرياتها تطارده حتى اليوم...

وفي تلك الليلة موضع حديثنا كانت ذاكرة جاكوب تستعيد هذه الذكريات كأنها آلة تصوير ، بترتيب معتاد.

حدث الأمر عام ١٩٥٤م ، فيه ظهرت جماعة إرهابية مسلحة صغيرة بالبلدة تدعى "المصلوبون" ؛ وقد كانت أسباب ظهورهم متعلقة بظروف معيشتهم وضيقهم من الفساد ، وظنهم أن سكان المدينة ممن سواهم هم السبب في كل هذا ، وأنهم - أي المصلوبين - أحق منهم بالحياة ؛ فوجدناهم ينفذون اغتيالات عشوائية ويثيرون الفزع والرعب في نفوس الأهالي ، ومن الجيد أن الحكومة السابقة استطاعت هزيمتهم بأية حال بتكثيف الجهود والتعاون بين المدنيين وقوتهم العسكرية نفسها ؛ فقد كان من المسموح لأي مدني أن ينضم إلى المقاومة الناشئة ضد المصلوبين وحصل على تدريب عسكري ومهمة مناسبتين له ؛ وهذا من فرط رعب الحكومة والناس من أثر هذه الجماعة المتوحشة التي كانت تود حقاً قتل كل من في المدينة باستثنائهم ظناً منهم أنهم الصنف الأسمى والأرقى من الناس الذين لا يشجعون الفساد والتدهور ، بينما البقية يفعلون!

وقد انضم جاكوب لهذه المقاومة بعد إلحاحه على والديه رغم أن سنه كانت صغيرة بعض الشيء وقتئذ ، وتدرب معهم لبعض الوقت قبل أن يطلبوا منه الإقامة في سكن مع ثلاثة رفاق آخرين ، وينتظروا جميعاً أوامرهم.

وفي ذلك السكن تعرف جاكوب على ألبرت الذي كان وقتئذ كاتب مقالات مبتدئ يشق طريقه في أعمال الصحافة ، وله بعض المعجبين الذين يشجعونه على ما يفعل أكثر وأكثر ، وذكر أيضاً أنه كان يجني مالاً جيداً من هذا العمل.

وتعرف أيضاً على سباستيان الذي انحدر نسله من عائلة ثرية لكنه كره دور الفتى المدلل وأراد أن يفعل شيئاً يخلد وجوده ؛ فانضم إلى المقاومة ، وفي السكن عرفهم على موهبته الموسيقية التي تمثلت وقتها في دندنته لألحان رائعة دون أن يجد آلات موسيقية ليترجمها من خلالها إلى موسيقى حية للأسف.

وأبهرهم جاكوب بالطبع بمهارته الصاعدة في الرسم على الجدران كون أنها كانت المقابل الوحيد للوحات الرسم وقتئذ!

أما الرابع فكان منطوياً على نفسه لأبعد حد ؛ لم يخبرهم اسمه حتى ولم يكن هاوياً لأي شيء ، ولم يذكر لهم إلا أنه أتى لينتقم لمقتل أخيه على يد المصلوبين ، ولم يخبرهم حرفياً بأي شيء آخر!

وذات يوم أتاهم أمر من المقاومة بالاستعداد لمداهمة منزل تابع للمصلوبين في مكان قريب منهم ، وحددوا لهم يوماً وساعة للمداهمة.

وليلة التنفيذ تعجل الرابع وخرج بينما ثلاثتنا نيام ، وعندما استيقظوا قبل ساعة التنفيذ ببضع دقائق ولم يجدوه أخذوا أسلحتهم وخرجوا مسرعين باحثين عنه ، بفرض أنه ذهب وحده إلى مكان العملية كون الغضب كان يحفزه لقتل أي من المصلوبين منذ بداية سكنهم سوياً!

توجهوا نحو المنزل الهدف ، وكان وحيداً يقع وسط أرض خضراء ليست واسعة كثيراً وبه رجلان أو ثلاث رجال حسب معلومات المقاومة ؛ فافترق الثلاثة ليغطوا مساحة أكبر ، لكن المشهد الأسوأ كان من نصيب جاكوب الذي وجد جثة رفيقهم الرابع في مكان ما ممزقة على الأرض وقد بُتِرَت أطرافها وكُوِّمَت فوق بعضها!

تسمر جاكوب في مكانه وشعر بتقزز وغضب وألم شديدين جعلوا قدميه لا تقويان على حمله ، لكنه تحامل على نفسه وركض نحو مصدر صوت إطلاق النار الذي سمعه

فجأة ؛ ليجد سباستيان قد أردى أحدهم قتيلاً بمسدسه ، وإثر وصوله - أي جاكوب - حضر آخر ؛ فاستل جاكوب مسدسه بسرعة وأطلق حوالي عشر رصاصات في أماكن متفرقة من جسد هذا المصلوب بغضب جعل سباستيان يصرخ فيه قائلاً: "كفى يا جاكوب! كفى! هذه الهمجية لا تجعلنا أفضل منهم ، وفر طلقاتك!"

هدأ جاكوب قليلاً وأخذ يتنفس بصعوبة لبضع ثوان ، ثم أسرع الإثنان يبحثان عن ألبرت ، ولم يتحدث جاكوب عما رآه.

وأخيراً وجداه بالقرب من المنزل ؛ فعزموا على الدخول معاً بحذر علهم يجدون المقاتل الثالث أو فخاً ما ، أو رابعهم المفقود ، وبالطبع لم يتحدث جاكوب عما رآه!

حطم سباستيان الباب ودخلوا ، واكتشفوا بعد تفتيشه أن المنزل بالفعل كان خالياً تماماً من أي أثر لأي شيء ؛ فقال ألبرت متعجباً: "غريب ، نحن أيضاً لم نجده...لكن يا جاكوب ، أنت فتشت في اتجاه مختلف عنا ، أما وجدت شيئاً؟"

انعقد لسان جاكوب لبضع ثوان وهو ينظر إليهم نظرات غريبة مما حذا بسباستيان أن يسأله بقلق: "ما هذا يا جاكوب؟ قل شيئاً يا رجل ، لا تجعلنا نقلق بشأنك!"

وفجأة صرخ جاكوب عالياً وانهار باكياً يضرب الأرض بيديه ؛ فأسرع الإثنان نحوه يحاولان تهدئته بقلق ويسألانه عما يحدث ؛ فأجابهما: "لقد قتلاه! لقد مزقا جثته إرباً إرباً وبترا أطرافها! أكان ما رأيته هذا حقيقي؟!"

وهنا تشعر ذاكرة جاكوب به يحاول إسكاتها ؛ فتستسلم بعد إلحاحٍ مرير وتسكت...لكنها بالطبع لا تضيع فرصة استفزازه بذكرى عائلته الذي لم يكونوا أحن من الحياة عليه فكان يتمنى مفارقتهم في كل لحظة من حياته ، وأنه لما فعل ذلك وبدأ عمله بالفن واعتمد عليه كمصدر دخل وحياة حدث ما حدث ؛ فاعتبر الحياة من لحظتها خالية من المعنى والهدف ، وها هو يحيا منتظراً موته بثقة وأمل!

وقبل أن تصمت حقاً ، لم يفتها أن تلمح لتجربة جاكوب الأولى في الحب التي فشلت لاختلافاتهما الشديدة التي اكتشفاها مع تطور علاقتهما ، وأنها حسبما يذكر جاكوب كانت مادية ودنيوية لا تحب الفن ولا تعلم شيئاً عن الروح ، وكانت عنيدة غليظة في

معاملتها له ومقللة من أعماله في أحيان كثيرة ، وسخيفة تأبه للمظهر على حساب الجوهر ؛ فلم يضع جاكوب وقته في محاولات انتقام سخيفة اشتهر بها الشباب وإنما تركها متجاهلاً إياها ، لدرجة أنه نسي اسمها الكامل وملامح وجهها!

وأحياناً يتساءل بينه وبين نفسه دون علم ذاكرته اللعينة ما إذا كان قد بالغ وأساء فهمها ، لكنه يسارع بإغلاق الموضوع قبل أن تنتبه ذاكرته فتخالف أوامره ، وهو لا يخشى كثيراً من ذكرياته لكنه يراها غير مفيدة ونافعة ، وخاصة ذكرى حبه الخاسر هذا.

وبأية حال ، نذكر فقط - دون علم جاكوب وذاكرته - أنه وقتئذ شعر بذنب دفين أنه نام عن رفيقهم الرابع رغم علمه بحماسه وتسرعه ورغم أن الذنب إن كان ذنباً حقاً فلن يكون ذنبه وحده ؛ ولذا فإنه منذ ذلك اليوم لم يحظ بليلة نوم كاملة دون قلق وأرق ، وأصبح يتمشى كل يوم ليلاً في نفس التوقيت ويحرم على نفسه أن يغمض عينيه فيه!

ولا تتعجب ؛ فالذنب حتى وإن كان وهمياً يقود صاحبه لفعل أشياء لا يصدق بنفسه أنه يفعلها ، لكنه يفعلها على أية حال!

١٠ مارس ١٩٦٣م

في غرفة البيانو بمنزله الفخم كان سباستيان يعزف وإلى جانبه زوجته يحدثها عما حملته له الأيام الماضية من أحداث كعادته ، بينما هي كعادتها تنظر إليه بشغف وهيام واضحين تحثه على أن يستكمل حديثه ، لكنه فجأة أوقف عزفه وحديثه قائلاً: "أشعر بأن كل هذا هراء يا إليزابيث ، إننا قلة قليلة جداً مقارنة بالهدف الكبير الذي نطمح إليه ، إن ألبرت كاتب له عنفوان ومشاعر وربما خيالات و...ربما قد تخطى حدوده ، ربما غرق في خياله ، لكن لا أدري لِمَ شعرت أنا بأن الأمر...قد يكون ممكناً!"

مطت إليزابيث شفتيها قائلة: "هم لا يفرضون ضرائب على الأحلام بأية حال ، وما المشكلة حتى إن فشلتم ؟ على الأقل سيرتاح كل منكم ويشعر أنه فعل ولو أموراً بسيطة في سبيل ما يؤمن به!"

-...إنني أخشى الإغراق في المعنويات كما أخشى الإغراق في الماديات يا إليزابيث!

=ما الذي قلته عن الماديات ؟!

-هه! لا أقصد المال...أقصد الواقع ، والحقيقة ، وما نراه ونلمسه...اللعنة ، أشعر أنني الآن غدوت أتحدث مثلهم!

=سباستيان...

قالتها برقة وهي تمسك يده ، ثم تابعت: "يا عزيزي ، هدئ من روعك ، ما الذي تخشاه ؟ الأمر كله سيكون سلمياً من بدايته إلى نهايته ، هذه محاولات وتجارب في سبيل أهداف سامية ؛ فلا بد لها أن تكون صعبة يا سباستيان!"

-إذن...إن أكملتُ هذا ، سترضين ؟

=أنت إنسان عظيم يا سباستيان ، وأعرفك وأهيم بك منذ كنت عازفاً متدرباً لا نراه كثيراً إلا في الاحتفالات ، وقبل أن تحصل حتى على نصف ما لديك من ثروة أحببتك

وأردت أن أكون بجانبك ؛ فأنت شاعري وعطوف وتناسبني ، ولا بد أنك ستناسب أهل المدينة إن شعروا أنك تتعاطف معهم أيضاً ، لا بد أنهم...

-إليزابيث...أنتِ محقة!

=ليس الأمر أنه علي أن أكون أنا محقة ، لكن المهم أن أقول الحق وحسب!

-أفهمكِ يا عزيزتي ، وإذن لا بأس ، فلنحاول وليكلل الرب محاولاتنا بالنجاح!

=سيفعل لأنك على حق ، والآن أكمل عزفك وأخبرني ؛ كيف أبدو اليوم ؟!

عاد سباستيان يضغط أزرار البيانو برقة ودقة وهو ينظر إلى زوجته قائلاً بانفعال طريف: "تبدين رائعة ، خارقة ، مذهلة ، ومشرقة!"

١١ مارس ١٩٦٣م

مرت خمسة أيام منذ آخر اجتماع لرفاقنا ، وفي اليوم السادس رأى ألبرت أن مهلة السكون تلك كانت كافية ، وأنه لا بد لهم - وله أيضاً - أن يكونوا قد أعادوا التفكير مراراً وتكراراً وأصبحوا متقبلين أكثر لمشروعهم الثوري السلمي ومستعدين للبدء فيه ؛ فأرسل إليهم يطلب حضورهم في مكتبه مجدداً كي تبدأ المناقشات الجادة بينهم بحق.

وعندما أصبح الجميع هناك بالفعل رحب بهم ألبرت ، وبدأ الحديث بسرعة: "نحتاج إلى مكان اجتماعات أفضل من هذا ، لا يشترط أن يكون مجهزاً بأي شيء حتى لكننا نريده فقط أن يكون سرياً وصالحاً لجلوسنا واجتماعنا معاً بشكل آدمي!"

عقد برايان حاجبيه متسائلاً: "وما المشكلة في المكتب ؟!"

رد ألبرت: "عندما نبدأ ستظهر أسماؤنا ، ونحن نعلم أن الوجه اللطيف للحكومة هو مجرد ستار ، إن أخذونا على محمل الجد..."

وصمت لبضع ثوان ؛ فأكمل ماثيو نيابة عنه وقد فهم مراده: "قد يحاولون تتبعنا ، وقد يصلون إلى بعض ممن نهتم بهم ، أنا أفهمك يا سيد ألبرت وأدعمك!"

وافق برايان أيضاً: "نعم ؛ فنحن على مر التاريخ والعصور نعلم أن السياسي نادراً ما يظهر بوجه بشوش إلا لهدف أو منفعة ما ، وأظننا أتينا على ذكر هذه النقطة سابقاً."

وهنا أسرع سباستيان يقول: "هنالك مستودع مهجور يبيعه أحدهم يقع في مكان قريب ، ورغم أنني لا أحب مسألة شراء الأملاك تلك لكني سأفعلها لأجلكم ، سيكون من طابقين وسنجهزه بما نحتاج..."

قاطعه جاكوب: "لا داعي لأية تجهيزات ، نحن نود أن يظل المستودع خالياً ولا يدعو للشكوك حتى اللحظة الأخيرة ، في الواقع ربما يكون حتى شراؤك له خطراً يهدد..."

قاطعه سباستيان: "لا تقلق ، لن أشتريه أنا بنفسي بل سأرسل شخصاً أعرفه وأئتمنه ليتفاوض مع البائع كأنه سيشتري المستودع لنفسه ، وبعد أن ينتهي الأمر سنكون نحن فيه."

وهنا أومأ الجميع بالموافقة ، وتحدث ألبرت: "جيد ، يبدو كل شيء جيداً ؛ ولذا علينا أن نحدد الخطوة الأولى بشكل نظري ، وهذه مهمة الأستاذ برايان."

قالها وأشار إلى برايان منتظراً حديثه ؛ كونه هو مُنَظِّر الحركة ؛ فتحدث قائلاً: إن الموسيقى أبلغ وأحب إلى الأذن والروح أكثر مما سواها من صور الفن ، وأظن أنه علينا البدء بها إن أردنا إيقاظ أرواح الناس ووجدانهم مجدداً."

وافقه الجميع وهم ينظرون إلى سباستيان الذي ابتسم لعلمه أنه المقصود ؛ فأدلى باقتراحه: "لا بأس ، يبدو أنه سيكون لي شرف الهجمة الأولى! وإذن أقترح عزف الشوارع كبداية ، إن كنا مستعدين لمخاطره!"

تساءل ألبرت: "وما الذي يمكن أن يحدث ؟"

رد سباستيان وهو يوجه نظره نحو جاكوب: "مع احترامي لك يا صديقي ، لكن ما حدث معك منذ بضعة أيام يجبرنا على توخي الحذر!"

أومأ الجميع موافقين حتى جاكوب نفسه وقد فهموا مقصده ، وحثه ألبرت على المتابعة فتابع: "هنالك بعض الأصدقاء القدامى الذين أعرفهم من الأيام الخوالي ، ورغم أننا لا نتحدث كثيراً لكنني متأكد أنهم لن يمانعوا عملهم معي على أي شيء ، تحديداً إن تعلق بالموسيقى."

سأله جاكوب متعجباً: "حتى لو كان عزف شوارع ؟!"

-أجل ، إنهم...أوغاد موسيقيون موهوبون ، وأشقياء!

=فإن تجرأ أحد على مهاجمتكم مثلي...

-لن يعرف حتى ما أصابه! أو...سنهرب ببساطة لئلا نثير غضباً لا داعي له.

وعندما ارتسمت ملامح الرضا على أوجه الجميع ؛ قال برايان مبتسماً وهو يوجه حديثه إلى سباستيان: "إذن نعطيك الضوء الأخضر يا سباستيان ، وننتظر منك أخباراً جيدة."

حك ألبرت ذقنه وقال فجأة: "إنني قلق يا رفاق!"

نظروا إليه جميعاً وقد عقدوا حواجبهم ؛ فحكى لهم ما يدور في خلده ، أي ما قالته هيلين له سابقاً - دون أن يصرح أن هيلين من قاله بالطبع - فرد برايان: "في مرحلة ما من حياته يميل الإنسان لئلا يفعل شيئاً أو يؤمن بشيء ، وإن لم يجد الإنسان المعنى في حياته فلن تقدر بسهولة أن تخرجه مجدداً من لا مبالاته وجموده!

ابتسم سباستيان معقباً: "هذا الهراء الفلسفي صادق!"

ابتسم برايان ، وأكمل سباستيان حديثه موجهاً إياه إلى ألبرت: "سأعترف أن الأمر يبدو ممتعاً يا ألبرت حتى وإن كنت الوحيد الذي يرى هذا ، وحتى لو كان مقدراً له أن يفشل فإني أود تجربته ، كفاك أوهاماً لأن هؤلاء الناس يحيون في خمول ولا يعرفون حتى ما الذي يريدونه من حياتهم ، وإن كان ما يؤرقك أننا سنفرض عليهم ما نراه فالواقع أننا نستعرض أنفسنا ورسائلنا وحسب ، ولا نرفع سلاحاً في وجوههم!"

غمغم ألبرت: "وهم لا يرفعونه أيضاً!"

قال برايان ساخراً: "ألبرت يا عزيزي ، إن كل فعل يرتكبه السياسي أو أي قول يقوله هو في حد ذاته سلاح ، ولا أحد هنا يجرؤ أن يخالفني الرأي!"

أومأ الجميع بالموافقة بمن فيهم ألبرت الذي قال على مضض: "لا بأس...انطلق يا سباستيان ونحن ننتظر أخبارك!"

الفصل الثالث

الخطوات الأولى

١٨ مارس ١٩٦٣م

عندما انتهى سباستيان من أمر شراء المستودع أعلم رفاقه الذين حضروا معه لمعاينته ، كان مكاناً فارغاً غير مشبوه من طابقين أعلاهما به غرفة مكتب واجتماعات ، ويقع في منطقة شحيحة السكان بالمدينة ، وبه - باختصار - كل المميزات التي تجعله مناسباً لمهمتهم.

وفي لقائهم الأول بالمستودع اتفقوا على تقليل عدد لقاءاتهم قدر الإمكان وبالتالي تقليل نسبة المخاطر ، وأعطوا الضوء الأخضر لسباستيان كي يبدأ مهمته بعد أن شكروه بحرارة على كل ما فعله لهم حتى اللحظة الحالية ، وبعد أن ضحكوا جميعاً - عدا جاكوب بالطبع - عندما رد سباستيان: "لا داعي للشكر يا رفاق ؛ فهذا ما يفترض بالأوغاد الأثرياء المحترمين فعله بدلاً من إنفاق أموالهم على أشياء لا يعلمون لِمَ ينفقونها عليها أصلاً!"

جمع سباستيان ثلاثة من رفاقه القدامى الذين ظلوا مثله مخلصين للموسيقى ، ولصداقتهم ، وعندما تأكد أن إخلاصهم لم يغيره الزمن حكى لهم باختصار عما هو جزء منه ، وفرح عندما أبدوا موافقتهم جميعاً وخاصة عندما أضاف أحدهم مازحاً أن الأمور العظيمة تبدأ دائماً بخطوات "حقيرة" كتلك ، وأضاف ثانٍ مازحاً هو الآخر أنه سيسعد بأن يدون التاريخ أفعالهم إن أحدثت فرقاً رغم أنه لا يحب التاريخ أو دراسته بأية حال ، وبالطبع لا ننسى رد سباستيان بأنه يشعر بسعادة غامرة لاجتماعه مجدداً برفاقه الأوغاد الموسيقيين الأشقياء!

وبعد ساعة تقريباً من تجوالهم في المدينة وتبادلهم الحديث واستعادتهم ذكريات قديمة مرحة وسؤالهم عن أحوال بعضهم ؛ وصلوا أخيراً إلى ميدان واسع يجلس فيه الناس كمكان عام طلباً للراحة والنزهة ، ولاحظوا إثر دخولهم حاملين آلاتهم الموسيقية نظرات الناس المتعجبة والمتشككة ؛ فلم يضيعوا وقتاً واستهلوا العزف بألحان تجمع بين المرح والعشوائية ، وتفاجأ سباستيان ورفاقه بكثير من ردود

الأفعال الإيجابية من الموجودين بالمكان ، وبأن كثيراً منهم رددوا أنهم كادوا ينسون حقاً كم أن الموسيقى عذبة وجميلة!

وهَمَّ كثير من الحضور بإلقاء قطع نقدية إلى سباستيان وفريقه ، لكن طبيعة الصراع والحركة التي شرحها سباستيان لهم جعلتهم يفكرون في فعل رائع وصادق يحسن من صورتهم ؛ فرفضوا الأموال وقالوا أنهم يفعلون هذا للترفيه عن الحضور وإنعاش هذه الأجواء الجامدة وحسب ، وكانوا بالمناسبة يعنون ما قالوه في قرارة أنفسهم حقاً ، وليس فقط لرغبتهم بدفع الشكوك عن الفنانين بأنهم يستغلون الجماهير - وهذه من مقومات ثورة أهل المدينة ومقاطعتهم للفنون والمعنويات ذات التأثير منذ البداية كما تعلمون - فالقضية تنجح في فرض تأثيرها بنسبة أكبر إن كان أصحابها حقاً مؤمنون بها.

وبهذه المناسبة لا ننسى التأكيد على أن رفاقنا جميعهم يعلمون أن أهل المدينة معهم جزء من الحق بشأن مسألة استغلال الجماهير حتى لو لم يكن الأمر من طرفهم هم ، لكنهم إن كانوا يعلمون أنفسهم شرفاء فهم يعلمون غيرهم من المؤثرين عكس ذلك ، حتى لو لم نأتِ على ذكر هذه النقطة كثيراً بين السطور.

ورغم ذلك كله فنحن نعلم أنه لا يمكن بسهولة نظرياً أو عملياً تحقيق ما يسمى بالإجماع ؛ فقد حدث ما توقعه سباستيان وأصدقائه حيث اعترض بعض الحضور على ما يحدث مُذَكِّرين البقية بآراء الحكام ، وباستغلال الفنانين والمؤثرين لهم وتلاعبهم بعقولهم ، وعندما لم يذعن لحديثهم إلا القليل جن جنونهم فهاجموا سباستيان وفريقه!

ورغم أن سباستيان ورفاقه كان بإمكانهم المقاومة وإلحاق الضرر بمهاجميهم إلا أنهم كظموا غيظهم وانفعالاتهم وانسحبوا هاربين ؛ كي لا يؤثر ردهم على صورتهم التي بدأت تتحسن - ولو بقدر بسيط - أمام الجموع ، وظلوا يركضون في الشوارع والأزقة لبعض الوقت مُطَارِدين من قِبَل هؤلاء المعارضين حتى أرهقوهم واستطاعوا الفرار منهم أخيراً!

وعندما أصبحوا بمأمن تبادلوا ضحكات وقهقهات مجلجلة ، وتواعدوا على تكرار هذا في الأيام المقبلة ، وما أسعد سباستيان حقاً ملاحظة جميع رفاقه سعادةَ الناس ومرحهم ؛ فجعلهم هذا يشعرون في أعماق أنفسهم أنهم ، وللمرة الأولى منذ وقت طويل ، حققوا شيئاً ما!

٢٥ مارس ١٩٦٣م

وفي لقائهم التالي بالمستودع أعلم سباستيان رفاقه بما حدث ؛ وقد أسعدهم هذا كثيراً - لدرجة أنهم لمحوا شبح ابتسامة على وجه جاكوب - وجعلهم يشعرون أنهم للمرة الأولى منذ سنوات من اليأس والفراغ قد حققوا بالفعل شيئاً ما ، وجعلوا أفكارهم النظرية أخيراً محل تطبيق ؛ وأكد لهم هذا أن هدفهم ممكن بالفعل وأن حركتهم البريئة تلك يمكنها أن تنجح وتغير كل شيء ؛ لأنها بكل بساطة حقاً بريئة وصادقة!

وتحدث برايان قائلاً: "إن ما فعلته حقاً رائع يا سباستيان ، وأثني تحديداً على أنكم لم تأخذوا نقوداً من أحد ؛ فمن أساسيات نجاحنا أن نؤكد لهذه الجموع أن المثقفين والأدباء والفلاسفة والفنانين والمؤثرين عموماً لا يستغلونهم..."

قاطعه ماثيو مازحاً: "نسيت رجال الدين!"

غمغم برايان: "نعم...لكني ذكرتُ المؤثرين بشكل عام!"

ولم يعلق أحد فتابع برايان مسرعاً: "إذن ، على كل منا أن يثبت هذا الأمر بطريقته ، إن صدقنا وبراءة قضيتنا أساس كل شيء ، من سيكون التالي ؟"

وقبل أن ينطق أحد بكلمة رفع جاكوب يده ؛ فنظروا إليه مبتسمين وعلق ألبرت ساخراً: "لن نعطيك الضوء الأخضر قبل أن تعدنا ألا تكسر مزيداً من الأنوف أو تدمي وجوهاً أخرى!"

ضحكوا جميعاً بينما ابتسم جاكوب ابتسامة باهتة لبضع ثوان قبل أن يتحدث ماثيو: "أودك أن تهدأ وحسب يا بني ، إنني أشعر بما يعتمل في صدرك ، كلنا غاصبون لكن الغضب من الرذائل التي لا تُرجى منها المنافع ، ولا حاجة لي أن أذكرك أننا نسعى جميعنا للهدف ذاته ، لكن علينا أن نتقدم صوبه بحذر ودقة."

هز جاكوب رأسه موافقاً وهو يعدهم ؛ فعلق سباستيان ساخراً هو الآخر: "أقسم على هذا!"

ضحكوا مجدداً ، وضحك جاكوب ضحكة قصيرة خفيضة هذه المرة قبل أن يقسم لهم بالفعل ، ويعطوه الضوء الأخضر ليبدأ دوره.

٤ أبريل ١٩٦٣م

لم يغفل رفاقنا ملاحظة هامة ، وهي أنهم يجتمعون سراً في مستودع بينما تعتمد خطتهم كلها على أن يخرج كل واحد منهم بنفسه إلى النور في كل مرة وينفذ دوره فيها!

ولكنهم أرادوا أن يكون الأمر طبيعياً وكأنه مبادرة شخصية من كل منهم ، وأرادوا لهذه الأحداث أن تأتي بالتسلسل ؛ فما يجب أن يخشوه هو "التجمعات الغامضة" وليس "الأعمال الفردية" ، وهذه كانت فكرتهم بشأن تقليل الاجتماعات وجعل كل واحد منهم يؤدي دوره بعد أسبوع أو بضعة أيام من رفيقه السابق ، وهكذا إلى أن يزيد عدد داعميهم فيبدو الأمر وكأن تأثيرهم أصبح رأياً شعبياً ؛ وهنا قد يكون من الآمن لهم أن يعملوا بمزيد من الحرية.

أما عن جاكوب ؛ فقد شرع ينفذ دوره بعد بضعة أيام من اللقاء الأخير ، وقرر أن يستخدم أسلوباً بسيطاً ومباشراً كما فعل سباستيان ؛ فراح يتنقل في المدينة بأدوات رسم بسيطة ويرسم أشياء عشوائية ويفرغ أفكاراً عفوية على الجدران ، وكان يفعل ذلك بالطبع بعدما يتأكد أنه ليست جميع الأعين في الشوارع عليه ، ثم يبتعد ويراقب ردود أفعال المارة التي كانت مبشرة بالنسبة له ؛ فقد تأملوا ما رسمه وأبدوا إعجاباً به ، ولم يُعِر هو اهتماماً بلا شك لبعض اللذين كانوا يبصقون على ما رسمه إذا مروا به!

وشجعه هذا على تنفيذ الخطوة التالية من خطته ؛ فذهب ذات يوم إلى نفس الميدان الذي كان سباستيان قد جرب عزف الشوارع فيه ، وقد أخذ معه لوحة رسم وحامل صغير وأدوات رسم وتلوين بسيطة ، وراح يرسم لوحة رائعة تجسد رجلاً يحمل قيثارة وهو يصعد سُلما يوصل إلى سماء صافية مبهجة للأنظار ؛ أثارت انتباه الموجودين ثم أثارت إعجابهم عندما اقتربوا منها وتأملوها عن كثب!

والمفاجأة حقاً كانت أن بعضهم تعرف عليه ، وقد سأله شاب من الحضور: "ألستَ السيد جاكوب صاحب المرسم في شارع كذا ؟ أذكر أني كنت جيداً نوعاً ما في الرسم فيما مضى ، أود أن أعمل معك وأتعلم منك أكثر إن كنت لا تمانع!"

تعجب جاكوب وبادله السؤال: "وما الذي يمكنك أن تعمل فيه معي ؟!"

رد الشاب بحماس: "أي شيء يا سيدي ، ربما أساعدك في تنظيف المرسم وترتيبه أو..."

ولم يفكر جاكوب كثيراً وإنما انتهز الفرصة فوافق ، وأكد للشاب أن عمله لن يكون مجرد تنظيف وترتيب وحسب وإنما سيجعله ينخرط معه في العمل الفني أيضاً ؛ وأسعد هذا الشابَ كثيراً بالطبع كما أبهج الحضور الذين تابعوا الموقف بأعينهم.

ولكن ، وكما المتوقع ، لا تأتي الرياح دائماً بما تشتهي السفن ؛ فقد تحدث وغد كالأوغاد الذين هاجموا سباستيان سابقاً: "نعم ، وماذا بعد ؟! متى يأتي الجزء الذي تستغل انبهارنا فيه وتطلب منا ثمناً للوحاتك الرائعة التي لا يحتاجها أحد ؟!"

ورغم أن صدى كلامه لم يكن عالياً بين الحضور إلا أن جاكوب تمالك أعصابه وهو يرد: "لن يأتي هذا الجزء ؛ فأنت على حق بأنه لا أحد يحتاج إلى هذه اللوحات وإذن فلا أحد يجبرك أو يجبر أحداً من الحضور على الوقوف هنا ، إنني أفعل هذا لأنني أحبه وحسب ولا أستطيع أن أفعل غيره ، أما أنت فلك حرية اختيار أكبر ؛ يمكنك أن تبقى أو ترحل وفي كلتا الحالتين لا أحد يجبرك على شيء!"

احمر وجه الرجل غيظاً وغضباً وهم بضرب جاكوب الذي سبقه وقام من مكانه حاملاً أدواته ، وغادر الميدان قائلاً: "أنا لا أتسول المال ، وأرى أن ما أفعله أرقى من أن أقدره به ، ومن يعرفني جيداً يدرك كيف أن الحياة والموت لدى قلبي سيان ؛ أما عن شكوككم بشأن الاستغلال وكل هذا الهراء الذي يشغل عقولكم فلا دخل لي به!"

ورغم الضيق الذي غزا صدره إلا أن جاكوب كان راضياً بعض الشيء بإتمامه لدوره في الخطة ، وراوده شعور غريب غير مألوف أنه سعيد - بعض الشيء - ومتحمس - قليلاً - ليشارك رفاقه هذه الأخبار!

١٥ أبريل ١٩٦٣م

في لقائهم التالي هنأ أبطالنا جاكوب على حسن صنيعه بعدما قص الأحداث عليهم ، وأثنوا خصوصاً على ضبطه لنفسه في مواجهة من حاول مضايقته ، وشعروا في أعماقهم ببعض الراحة والأمل إثر رؤيتهم له وقد ظهرت عليه بعض أمارات السعادة ، ولأنهم كانوا يعرفونه جيداً فقد كان هذا الأمر إعجازياً عجيباً بالنسبة لهم!

وبعد أن انتهى الحديث عن جاكوب تقدم ألبرت ليتحدث عن الخطوة القادمة وعن دوره القادم في الخطة ، وأنه يتمنى النجاح في مهمته لأنه رغم أنها ستكون صعبة وغير مضمونة النتائج إلى حد كبير لكن لا بد منها.

كان اقتراح ألبرت الرئيسي هو دخولهم عالم الصحف ، ورغم أنهم كانوا يعلمون جميعاً أن أحداً لم يعد يشغل باله بالقراءة لكنه أكد أن لديه خطة منطقية بهذا الشأن وشرحها لهم ، ورغم أنهم شعروا مثله أن نتائجها قد لا تكون مضمونة بالفعل لكنهم دعموه جميعاً ، وأعطوه الضوء الأخضر لينفذها.

وشرع ألبرت ينفذ خطته ؛ فحادث صديقاً قديماً له يشرف على جريدة ما ، وعرف منه أن جريدته تلك لا تجني أعمالها كثيراً من المال هذه الأيام - بديهي - لقلة اهتمام الناس بالقراءة ، وأنه يفكر في التخلي عنها والبحث عن عمل مختلف ، ولأن ألبرت كان يعلم أن الرجل يشعر بالضيق هو الآخر مما آلت إليه الأحوال ولأنه كان يثق به ؛ أخبره كل شيء تقريباً عن رفاقه وعن حركتهم السلمية ، وعما حققوه من إنجازاتٍ بسيطة خلال الأيام السابقة ، واكتشافهم أن قدراً ليس بضئيل من الناس ما زال يحن في أعماقه إلى دنيا الفن ، ودعاه أن يقدم لهم المعونة ليكتشفوا ما إذا كان الناس يحنون إلى الأدب كذلك أم لا.

ولم يكن إقناعه صعباً إذ أنه سمح فوراً لألبرت بفعل ما يريد فعله ، لكن بالطبع لم تفت ألبرت ملاحظة يأسه وقلقه ألا ينجح الأمر ، لكنه جعل الرجل يغير رأيه وبث فيه

قدراً من الثقة والأمل بأن قال له: "دع التاريخ يذكر أنك حاولت لا استسلمت ، أرى أن هذا أفضل!"

وأخبره ألبرت بما ينوي فعله: أراد من الرجل أن ينشر له بضع مقالات في جريدته عن الأدب وقيمته ، وتأريخه لحياة البشر في مختلف العصور بشتى أنواعه ، وأثره في ترقيق الوجدان وشحذ العقل ، والأهم كيف أن الأدباء والمثقفين لا يستغلون الناس أو يغسلون عقولهم كما يُقال ، وحتى إن كانت نيتهم كذلك بالفعل فكل شخص حر فيما يقرأ أو يؤمن أو يدعم ، وأن الكُتَّاب بشر مثلهم كمثل القراء وجميعهم لديهم نظرة ما للحياة ، وحكايات تشغل أذهانهم يودون قَصَّها ، الفارق وحسب أن الكُتَّاب تحدثوا أمام العالم بما يجول في عقولهم ويعتمل في صدورهم ، وهذا مجرد تقرير للحقيقة لا يهدف إلى التقليل من القراء بالطبع.

ولا حاجة للقول أن الراجل وافق بالطبع ، وقد تمنى في أعماقه أن تنجح أفكار ألبرت تلك ويتردد صداها ؛ لأن هذا قد يعني بدايةً مُنتَظَرة لعودة المياه إلى مجاريها الطبيعية.

وكانت المفاجأة أن ألبرت - نوعاً ما - نجح!

فقد جنت خطته ثماراً طيبة خلال ما يقل عن نصف الشهر ؛ زاد الإقبال - قليلاً - على مطالعة وشراء الصحف من ناحية ، وزاد الطلب - قليلاً أيضاً - على ابتياع الكتب من تجارها الذين ركدت تجارتهم وقرائتها من ناحية أخرى ، ورغم أن الإنجاز كان بسيطاً - ولم يرفع ألبرت توقعاته للنتائج بأية حال فأرضاه هذا - إلا أنه فتح باباً لخطوات كثيرة أخرى ، وكذلك انضمام صحفيين وكُتاب جُدد إلى ساحة الأدب التي أوشكت أن تصبح فارغة تماماً!

إن تراكم الأخبار الجيدة على مدار الأيام الفائتة أكد له أكثر أن ما يطمحون إليه ممكن ، وكل ما تمناه في تلك اللحظة أن تكتمل مهمتهم بسلام ، وأن يظل الوجه الطيب الزائف للحكام قائماً لوقت أطول ؛ فهو يعلم أن صدامهم مع أولئك القوم ليس سوى مسألة وقت!

٣٠ أبريل ١٩٦٣م

كان يوماً رائعاً ذاك الذي قص فيه ألبرت على رفاقه أخبار نجاحه ، وقد استبشروا جميعاً بهذه النتائج كثيراً ، ورآها برايان نقطة البداية الفعلية للدرب الذي سوف يسلكونه ، طويلاً كان أم قصيراً ، وعراً كان أم يسيراً.

وكذلك كانت لدى برايان أخبار أخرى رائعة ؛ فقد تردد صدى مقالات ألبرت لدرجة أن طلاباً قدامى وأناساً يعرفونه أتوا إليه خلال الأيام السابقة يطلبون بعض الكتب منه ، ورغم حبه لها وحفاظه عليها منذ وقت طويل إلا أنه لم يرفض إعارتها لهم أو حتى بيع بعضها لمن كان مستعداً ليشتريها ، وقد أسعده هذا جداً وشعر في أعماقه أنه لا يحتاج إلى القراءة أكثر من ذلك ، وأنه لا داعي ليعلم أكثر مما يعلم ، ولا بأس الآن أن يحظى غيره بنفس الفرصة ليخوض تجربته مع هذه الكتب.

وقد شجعه هذا ليطلب من ألبرت أن يشارك هو الآخر بمقالات في نفس الجريدة عن الفلسفة ، المظلومة مهدورة الحق التي لا يفهمها الجميع بشكل صائب ، وكيف أنها ليست وسيلة لغسل عقول الجماهير كما يُشاع وإنما هي في المقام الأول مجرد تأملات ، وأننا كلنا فلاسفة بشكل أو بآخر لكن التاريخ يذكر...

"من صَرَّح بأفكاره وحسب!"

قاطعه ألبرت بالجملة فابتسم بمرح ، وأكمل حديثه عن الفلسفة التي لا تسعى إلا لجعل الإنسان يتجرأ على مواجهة نفسه وواقعه ومحاولة فهم مكانه فيه ، إلخ...!

والخلاصة أن ألبرت وافق - لا شك في ذلك - آملاً أن تحقق هذه الخطوة نجاحاً جيداً هي الأخرى ، وقد كان ؛ إذ حَيَّاه بعض طلابه على مقالاته الرائعة بعد بضع مشاركات له ، وأصبح في وقت قياسي ملهماً لكثير ممن اعتمل في صدورهم الكثير بشأن الفلسفة وتمنوا أن تسنح أية فرصة لإنقاذها ، ويبدو أن برايان كان هو فرصتهم وأمنيتهم!

ويبدو ان كل شيء يسير على خير ما يرام حتى الآن.

١٢ مايو ١٩٦٣م

لم يتوقع أبطالنا أن يصلوا إلى هذه المرحلة ، وأن يروا بأعينهم أن هنالك كثيرون يناصرون قضيتهم ؛ فدفعهم فرحهم بإنجازاتهم إلى محاولة تجديد الخطوات وإقناع ماثيو بالمشاركة ، والذي وافق بعد أن كان خجولاً بعض الشيء من ظهور اسمه وسط كل هذه الأحداث لأسباب لم يفصح عنها ، لكنه أيضاً لم يشترك معهم كضيف وحسب لذا فلم يتردد كثيراً ؛ فطلب من ألبرت أن يشركه معهم في الكتابة الصحفية لأنها - كما يبدو - هي الوسيلة الأكثر فعالية ، ومنطقية!

وهكذا كتب ماثيو بكل شغفه وحبه عن الدين ، عن كونه أهم محددات هوية الإنسان ، وأفضل بوصلة أخلاقية توجه أفعاله ، ودافعاً هاماً وأساسياً بل وغريزياً لدى النفوس السوية لتقبل الإنسان حياتَه وذاتَه والعالم من حوله بكل متغيراته وأحداثه ، وأنه ليس مجرد نصوص محفوظة يرددها الكهنة والوعاظ وهم لا يستشعرونها بل ممارسات روحية وقلبية في المقام الأول نابعة عن إيمان ؛ وعلى هذا فإنه يدرك أنه سلاح ذو حدين ؛ وهذا بديهي بوجود غسل العقول باسمه ، واستغلال بعض رجال الدين وذوي التأثير لتعاليمه للتلاعب بعقول الجماهير ، ولكن حتى لو كان الجانب السيء لوجوده طاغياً في أي زمان ومكان يظل الدين نقياً وبريئاً ممن يستغلونه أو لا يحسنون فهمه ؛ فكيف يكون من يستخدمه لمصالحه الدنيوية الشخصية الفانية قد فهمه بشكل صحيح وهو - أي الدين - يركز أساساً على نبذ الدنيا والطموح إلى رغد العيش في الآخرة ؟!

ولم تحقق كلمات ماثيو نجاحاً أقل مما حققه ألبرت وبرايان ، وقد زار ماثيو ذات يوم بعضاً من دور العبادة المهجورة ؛ ليجدها قد بدأت تحيا ثانية بزوار جدد ، حتى ولو كان عددهم قليلاً بعض الشيء.

وبالطبع أسعده هذا كثيراً وأسعد الفريق كله ، لكن لم تفت ماثيو ملاحظة أن برايان كان أقلهم سعادة ، ربما أقل من جاكوب نفسه!

الفصل الرابع

نتائج محمودة

٢٢ يونيه ١٩٦٣م

من السهل أن نتوقع تحقيق أبطالنا لأكثر مما توقعوه حتى منذ اللحظة الأولى ؛ ففي خلال شهر أو أكثر قليلاً تغير كل شيء تقريباً ، وحُرِّرَت أرواح أكثر من ذي قبل ؛ حُررت من التمتع بجماليات العالم بدل الاعتقاد أنها سجن ، واتضح لمزيد ومزيد الناس أن الجمال لا يفرض عليك نفسه ؛ إنما أنت من تختار أن تكون معجباً به أو عبداً له!

وإثر هذه الأخبار الرائعة ود ألبرت أن يقابل هيلين ليقول لها القول المأثور: "قلتُ لكِ!"

وبالفعل راسلها واتفقا سوياً على لقاء بالمقهى العتيق حين الغروب كما اعتادا ، وعندما حان الوقت وأصبح ألبرت هناك بانتظارها شعر أن جدران المقهى وأركانه تشاركه سعادته ، وقد كانت زيادة عدد رواده في هذا اليوم شاهدة على مدى النجاح الذي حققه رفاقنا.

وعندما وصلت هيلين ، آخر قطعة من لوحة الغروب البديع ، تقدم ألبرت بضع خطوات نحوها ليقول لها باسماً: "قلتُ لكِ!"

فلكزت ذراعه قائلة: "أكثر من عشرة مقالات ولم تأتِ على ذكري في واحدة منها حتى ، يا لك من ناكر جميل!"

رد ضاحكاً وهو يعود معها إلى طاولتهما: "خشيت أن يبحث الناس عنكِ بابصارهم!"

اتخذت مقعدها ثم نظرت إليه بشغف وهي تقول: "أنت حقاً بطل يا ألبرت ، ويعلم الله وحده أني لم أقصد تثبيط همتك أبداً ، لكن أتصدقني لو أخبرتك أني ، وحتى هذه اللحظة ، ما زلت قلقة بشأنك ؟!"

-هيا يا هيلين ، أنتِ تضخمين الأمور وحسب!

=لا شكر على واجب ، هذا أقل ما أفعله كوني أحبك!

-هه! هيلين تتصرف على سجيتها!

=...أتعلم شيئاً يا ألبرت ؟ ربما كنتَ محقاً ؛ ربما لم ينبذ الناس كل هذا بإرادتهم حقاً ، الأمر فقط أن المرء أحياناً لا يفهم إرادته بقدر ما لا يفهم نفسه!

-وهذا ما راهنت عليه منذ البداية.

=لكني أعلم أن غير المستفيدين مما يحدث لن يغمض لهم جفن يا ألبرت ، وإني أخشى عليك وعلى رفاقك...

-شكراً يا عزيزتي على تضخيم الأمور ، أنا أيضاً أحبك!

=هه! وأنت تعلم أني أحبك بالمثل ، وكل هذا لا ينفي فخري بك أيها الأصلع!

ضحكا ، وقبل أن يستكملا حديثهما فوجئا بتصفيق حار من رواد المقهى كلهم تقريباً ، وعندما نظرا إليهم وجداهم ينظرون إليهما بالمثل ، وسارع أحدهم بالحديث: "أنت بطل يا سيد ألبرت ، هذا المقهى يفخر باستضافة أبطال مثلك!"

ولأول مرة في حياته - لن نحتسب لقاءاته الأولى مع هيلين - شعر ألبرت بفخر وخجل غير متناقضين ، وود لو يقوم في تلك اللحظة فيحتضن هيلين بقوة ويصافح رواد المقهى واحداً تلو الآخر...

لكن صوت هيلين الساخر وهو تمازح المصفقين انتشله من أفكاره: "بالطبع يجب أن تفخروا به ، إن صلعته الآن تعكس أنواراً قادمة إلينا من مستقبل مشرق!"

٢٧ يونيه ١٩٦٣م

ولم يكن نجاح برايان وماثيو أقل من نجاح البقية ؛ فقد حشد برايان جمعاً من الطلاب ومحبي الفلسفة الذين رأوا فيه أملاً ومعلماً ، وحشد ماثيو كذلك حفنة ممن ألهبت التعاليم الدينية مشاعرهم ورأوا فيه خلاصاً ونهاية عهد للحياة دون هوية وهدف ، وهذا التأثير صنعاه ببضعة مقالات وحسب!

وتكررت تجارب سباستيان ورفاقه في عزف الشوارع لدرجة أنهم وجدوا مقلدين لهم في بضع أماكن بالمدينة ، وكانت هذه أخبار سارة بالنسبة للجميع بلا شك.

لكن ما أسعد سباستيان وأثلج صدره حقاً كان دعم زوجته ، والتي حضرت معه عزفاً ذات مرة ، وكانت ردود أفعالها والبهجة البادية على قسمات وجهها كل ما يهم سباستيان في تلك اللحظات!

وذات يوم في منزلهما بينما كانت ابنتهما تنام بعمق ، جلسا أمام البيانو الضخم وراح سباستيان يعزف ألحاناً رومانتيكية عشوائية متغزلاً في وجهها ، وكانت بسمتها المشرقة حينئذ تلهب وجدانه ، وفجأة توقف عن العزف وقال لها: "البيانو لا يود أن يكمل ؛ أنه يخجل من كون نغماته أقل قدراً وقدرة من أن تحيط في تعبيرها بجمالك كله!"

لم تتمالك إليزابيث نفسها وضحكت عالياً ، ثم سألها سباستيان: "وإذن ما رأيك ؟"

=إنني حقاً فخورة بك.

-حقاً؟

=بلا شك ؛ انظر إلى ما فعلته وحققته مع رفاقك ، إنك فنان حقيقي يا سباستيان ، والآن أنت لست مجرد فنان وحسب...أنت أيضاً بطل!

-...آمل أن يكون ختام كل هذا خيراً...

=لا يهمني ماذا سيكون ، كل ما آبه له أنك كنت جزءاً من كل هذا ، وهو يكفيني لأفخر بك حتى اللحظة الأخيرة من عمري!

-أنت حقاً أعز ما أملك في حياتي يا إليزابيث!

=وأنت عندي كذلك ، وأنت تعلم ذلك!

-إذن ، لن يغضبك استمراري...

=بل قد يزعجني توقفك عن فعل ما عليك فعله ، حتى لو لم تكن مضطراً لفعله!

-...أظنني فهمت أنه علي حقاً فعله!

=إن كنت تراها حقاً مسئوليتك ؛ فأنت تعلم إذن أنه ليس عليك أن تتوقف أبداً.

-نعم...لا ينبغي أن أتوقف إلى أن نحقق مرادنا.

=وستحققونه ، وإن لم يذكروك حتى سأذكرك أنا أبد الدهر!

-وأنا لا أريد أن يذكرني سواكِ!

١٥ يوليه ١٩٦٣م

أما عن جاكوب وذلك الشاب الذي عمل عنده فقد كانت الأمور جيدة جداً بينهما في المرسم ؛ فبعد أن ذاع صيت مرسم جاكوب هو الآخر وأصبح ملجأً لمن بقوا مؤمنين بالفن فتحسنت أحواله كثيراً ، تطورت العلاقة بين جاكوب وذلك الشاب ؛ الذي أصبحت موهبته في وقت قصير شبه مكافئة لموهبة جاكوب ، ولم يكف لسانه أبداً عن إبداء الشكر والعرفان لمعلمه المتواضع ، الذي بدأت المشاعر أخيراً تزور قلبه ولو زيارات خفيفة ؛ فوجد نفسه يميل إلى مجالسة هذا الشاب والحديث معه والسؤال عن أحواله ، وكانت للشاب حكايات لا تنتهي يحكيها بثقة لقدوته ؛ ما جعل جاكوب يشعر للمرة الأولى في حياته تقريباً أنه ذو قيمة!

وأتت نتائج هذا الأمر واضحة جداً ؛ فقد وصل الود بينهما مرحلة جعلت كل منهما يرى في الآخر أباً أو ابناً ، وأخاً وصديقاً ، رغم أن مدة وجودهما سوياً لم تتجاوز الثلاثة أشهر!

و...

أنت تعلمون أن للسعادة ثمناً أو نهاية ، أليس كذلك ؟!

ذات يوم من شهر يوليو ، نزل جاكوب كما اعتاد إلى مرسمه ؛ ولدهشته لم يجد رفيقه الذي لم يعرف عنه تأخراً عن مواعيده أبداً ، لكن لدهشته الأكبر وجد خطاباً على طاولة ؛ ففضه وقرأه ؛ وكان مفاده باختصار أن رجالاً اختطفوه ويحتجزونه عنده كرهينة ، ويطلبون حضوره في مكان حددوه له ، وتلا الخبرَ التوضيحُ بأنهم جماعة المصلوبين الجدد ؛ وهذا في حد ذاته جعل قلب جاكوب ينقبض وحث ذكرياتٍ أليمة كثيرة على مهاجمة عقله مجدداً ، وأخذ يسأل نفسه أسئلة بديهية كثيرة أهمها متى وكيف ولماذا عادوا ، ولم يسأل نفسه كيف عرفوه لأن هذا ليس السؤال المهم ؛ ففي وقت المقاومة سابقاً كان هو وكثيرون غيره ، لكن السؤال حقاً لماذا هو تحديداً ، وهل

هم المصلوبون حقاً أم أن هذه مجرد لعبة أو تهديد ممن يكرهونه ، لكن أنى لهم أن يتذكروا اشتراك جاكوب تحديداً في المقاومة بعد كل هذه السنين ؟!

أسئلة كثيرة عصفت بعقله في تلك اللحظة ، ولكنه فكر بمنطق لدقيقة كاملة ؛ وأدرك أن أسئلته لن يُجَاب واحد منها حتى إلا إن ذهب بنفسه إلى حيث أمروه ليفهم ما الذي يحدث ، وحتى لو كان هذا فخاً فلا بأس ؛ جاكوب لا يأبه لحياته وذهابه حتى سيكون لأجل رفيقه في الواقع ؛ فهو يقدر حياته أكثر من نفسه ويراه أحق بالحياة منه ، ويرى أي أحد أحق بالحياة من شخص بلا روح بأية حال ، ويرى البطولة من حق أدنى الناس أكثر مما يراها حقاً لبطلٍ بلا روح!

الفصل الخامس

الهاوية

١٦ يوليه ١٩٦٣م

من حسن الحظ أنه كانت هنالك مهلة من الأيام لجاكوب كي يفكر ، لكنه لم يرد إضاعة الكثير من الوقت ؛ فقابل ألبرت على انفراد وأخبره أن يجمع البقية في المستودع في اليوم التالي وأن ينتظروه ، وربما من الأفضل أن ينتظروه بأسلحة!

ورغم إلحاح ألبرت بالسؤال إلا أن جاكوب رفض الإجابة ، ولكن سببه لم يكون سخيفاً كالأفلام الأجنبية عندما يقول البطل أن هذه مسؤوليتي ومعركتي وحدي وكل هذا الهراء ؛ بل إنه أكد أن السبب الحقيقي أنه لا يريد الإتيان على ذكر ما حدث لأنه يزعجه ، وأقسم على ذلك.

وهذا مبرر أسخف من الأفلام الأجنبية بصراحة!

المهم أن ألبرت أذعن لكلامه ، وتمنى له التوفيق فيما سيفعله رغم أنه لا يعرفه ، ورغم أنه يخشى عليه بشدة ويعلم في أعماق قلبه أن شيئاً ما سيحدث...نبرته توحي بذلك!

عندما وصل جاكوب إلى المكان المحدد - وكان قد خبأ معه سكيناً ومسدساً في مكان يصعب التوصل إليه كإجراء احتياطي - وجده مجرد مبنى متهدم من طابقين ، تقابله شجرة كبيرة ذات أغصان كثيفة ، وبالطبع أثار هذا لديه قلقاً ورهبة لم يثنيا عزمه عن طرق الباب ، وبعد ثوان لم يأتِ خلالها رد دفع الباب بفضول هادئ ليكتشف لدهشته أنه مفتوح ، ووجد أمامه رجلين يتحدثان وكلاً منهما جالس على كرسي ، وعندما قطع دخوله حديثهما قاما ببرود وثقة عمياء مسرعين تجاهه ليصطحباه إلى الأعلى ، وقد شعر جاكوب من اطمئنانهم هذا وعدم تفتيشهم حتى له أنهم قد استعدوا له جيداً بالفعل ، وأن هذا سبب منطقي لهذه الغطرسة ، ولم يخب ظنه إذ أنه عندما وصل إلى الطابق الثاني وجد ثلاثة رجال بانتظاره ، وأحدهم قد كبل الشاب بأغلال معدنية وأجلسه أرضاً وهو يصوب سلاحاً تجاهه!

نظر الشاب إلى جاكوب بعرفان وامتنان شديدين ، ونظر إليه جاكوب بحزن يختبئ لاإرادياً خلف قناع من البرود الزائف ، لكن من حسن الحظ أن الشاب كان قد فهم معلمه جيداً وعذره على كل أفعاله ومشاعره وأقواله ؛ فأدرك حقيقة هذه النظرة الباردة دون عناء!

كانت بالطابق نافذة واحدة توجه نحوها جاكوب ووقف قبالتها وهو يوجه حديثه الساخر إلى المتواجدين الذي كان برودهم مثيراً للإعجاب ومنافساً لبروده حتى ، قائلاً: "تعجبني ثقتكم هذه التي لم تجعلكم حتى تفكرون في تفتيشي ، لكن لديكم الحق بالطبع ؛ فما الذي يمكن لرجل واحد أن يفعله في مواجهة هذا العدد من الرجال بأية حال ؟!"

رد أحدهم ببرود وقد بدا أنه القائد هنا: "لا شيء يا جاكوب ، لا شيء على الإطلاق!"

-كيف عدتم ؟ ولِمَ من الأساس ؟!

=الحقيقة أن حكومة البلاد الحالية تفعل الصواب ، وتسعى لتوفير الحياة الكريمة الحقيقية للمواطنين أكثر من ذي قبل...

-كيف أوفر لك الحياة الكريمة إن كنت أنوي حرمانك منها ومن كل ما يجعل لها قيمة ؟!

=كلنا نأتي إلى الدنيا في ظروف عبثية لنرحل وحسب في ظروف عبثية أكثر ، لا يعلقنا بهذه الحياة الفانية سوى هذه المسميات السخيفة من دين وفن وأدب وغيرهم ، كل هذا يمنع حريتنا ويصبح عوائق تمنع الشخص من أن يعمل بجد ويعود ليطعم عياله مع نهاية اليوم دون قلق أو توتر ، هذا ما ندافع عنه هنا!

-الناس لا يحبون هذه البراجماتية اللعينة ، ليس بالضرورة أن تأتي قيمة كل شيء من منفعته المادية...

=رأيك يُحترم يا جاكوب لكننا لسنا بصدد نقاش فلسفي هنا ، أياً كان ما تؤمن به أنت ورفاقك فإنه سيموت وستموتون معه إن لم...

-ظننتكم كرهتم الدكتاتورية منذ نشأتكم الأولى!

=نحن مع الصالح العام أياً كانت وسيلته يا جاكوب!

-...نعم ، يبدو هذا جلياً بالطبع!

=ولا تقاطعني ثانية!

-لك ذلك ، سأحاول!

=...لقد أعادت الحكومة تشكيل من تبقى منا لنساعدهم في توفير الحياة الكريمة الحقيقية للمدينة ولأهلها ، بل ووعدتنا بالتمكين السياسي إن أبدينا استجابة لرؤيتهم ، ولم نرفض بالطبع...

-وكيف لكم ألا تقبلوا ؟! أنتم لا تسعون حقاً لهذه [المنفعة] التي تتحدثون عنها بل إن ظهوركم من البداية تعلق ببعض الطموحات السياسية أو أن تشعروا بأن من حولكم يلاحظكم ويراكم وحسب أياً كانت الوسيلة...

=لا تقاطعني مجدداً يا جاكوب!

-اهدأ يا رجل ، هأنذا أستمع إلى هرائك!

=كأن سخريتك ستُحدث في فرقاً!

-كلا ؛ إني أعلم أنك بائس ولن تغير إيمانك!

=...نحن الآن مسؤولون أمام الحكومة وباسمها عن تصفية كل من يحاول إعاقة مسيرة التقدم هذه...

-تغير رائع ، مع أني أذكر أن الدعوة لهذه المسيرة كانت سلمية في البداية ، لكن يبدو حقاً أن الحكومات ليست سوى مجرد آلهة زائفة غاضبة في نهاية المطاف!

=إن الغاية تبرر الوسيلة ، والخير الذي تريده لنا حكومتنا المستنيرة يتطلب تغييراً في أمور كثيرة!

-كقتلي مثلاً!

=أنت ورفاقك!

-نعم ، لكنكم أحضرتموني تحديداً...

=فأنت تمثل حالة غريبة ومثيرة للاهتمام حقاً ، إننا بعد تحرياتنا عنك علمنا أن لديك علة غريبة في نفسك ؛ أنك لا تختبر المشاعر الإنسانية مثلنا ؛ فكيف لإنسان بارد مثلك أن يأبه لكل هذا أو يأبه حتى لقضية ويتبناها ؟!

-إن ما أتبناه حقاً هو إيماني الراسخ أن الحكومة الحالية ساهمت بأكبر قدر ممكن في إفساد حياتي!

=لا...نحن من سيفسدها حقاً يا جاكوب إن لم تتوقف أنت ورفاقك عما تفعلونه في أقرب وقت ، وبناء على ردك الآن سنتخذ قرارنا بشأن رفيقك هذا!

وهنا صاح الشاب: "لا تهتم بذلك يا سيد جاكوب ، لا تهتم بي ، حتى ولو قتلونا سوياً سيكون لموتنا حينئذ معنى!"

قاطعه جاكوب بنبرة حاول أن يخفي بها شعوراً بالأسى يزور وجدانه كضيف خفيف: "إني لا أستطيع ذلك ، لا أريدك...أن تموت!"

لم تتغير نبرة الشاب وهو يكمل: "لا بأس يا سيدي ، إني أريد الموت ، امنحني إياه..."

قاطعهما الرجل ساخراً: "وماذا بعد ؟! أتظنه سيخرج حياً إن رفض ؟!"

وبعد ثوان من صمتٍ عصفت خلاله أفكار كثيرة بذهن جاكوب - أفكار كثيرة ومشاعر شحيحة - تحدث بثقة: "إني لست نذلاً ، ولن يفهم أمثالكم معنى النضال من أجل جودة الحياة الإنسانية الحقيقية لأن كل ما تناضلون لأجله هو الحياة كجمادات ، لكني لا آبه ورفاقي بالمناسبة لا يأبهون ، ولا نخشاكم إذ أننا قد أحدثنا تأثيراً بالفعل وليس بالضئيل كما تزعمون ، وأنتم محقون في كوني لا أشعر كما يشعر الإنسان الطبيعي ، لكني رغم ذلك ما زلت آبة بما يجعل لحياتي معنى ، وأظن أن المعنى

الحقيقي والهدف من وراء كل لحظة مرت من حياتي منذ أن وُلدت وحتى اليوم هو اللحظة الحالية ، التي سأقول لك فيها بكل ثقة: لا!"

وفور انتهاء جاكوب من حديثه ودون أن يبدو أي تأثر أو رد فعل حتى عليهم ؛ أطلق الرجل الذي كان يكبل الشاب النار على رأسه مفجراً إياها أمام عيني جاكوب ، ومط قائدهم الذي كان يحادث جاكوب شفتيه وهو يقول ببرود: "لا بأس إذن ، يبدو أننا سنبدأ المهمة بنهايتك!"

رد جاكوب بنبرة حاول جعلها باردة ليخفي بها حزناً وتأثراً خفيفين إثر قتل رفيقه: "كلا ، كما قتلت أمثالكم من قبل سأفعل الآن ، ولكن الواضح أنكم لا تعلمون ذلك حقاً ، بأية حال ، أنا من سيبدأ مهمته بنهايتك!"

وبسرعة البرق رمى جاكوب سكينه بقوة ودقة أصابت عنق الرجل وأسقطته سريعاً ، واستمرت دهشة القتلة باردي الدم في المكان لخمس ثوان بالتمام والكمال ، خمس ثوان انتهزها جاكوب وقفز من النافذة محطماً زجاجها ، وتعلق بقوة بأغصان الشجرة قبل أن يهبط منها بأقصى سرعته ، ويشرع في الركض مسرعاً نحو المستودع ، مُطارداً من الأربعة المصلوبين المتبقيين!

١٦ يوليه ١٩٦٣م (٢)

أطلق جاكوب ساقيه للريح ومن ورائه الرجال الأربعة تلتهم أقدامهم المسافة الفاصلة بينه وبينهم ، وعندما أصبح بعيداً عنهم بمسافة مناسبة التفت نحوهم بنصف جسده بينما كان لا يزال يركض بأقصى سرعته ، واستل مسدسه وأطلق بضع رصاصات عشوائية أصابت إحداها أحدهم فأردته قتيلاً ، ولكن رفاقه تابعوا مطاردة هدفهم وكأن شيئاً لم يحدث ، أما جاكوب فقد واجه الأفق ببصره مجدداً وهو يتابع الركض ، وسط خوف وقلق بل رعب شديد من الناس الذين لم يفهموا ما الذي يجري بالضبط!

وعندما أصبح قريباً بالفعل من المستودع رآه ألبرت ، وقد أثار مرأى مطاردي جاكوب في نفس ألبرت قلقاً شديداً إذ أنه لم يتوقع أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة ؛ فأمر سباستيان أن يصعد بسرعة إلى الطابق العلوي ويحاول إصابة من يستطيع من هؤلاء الثلاثة ، وأمر ماثيو وبرايان بالاختباء هنا كدعم احتياطي ، ولم يخف أحد منهم بالطبع قلقه وخوفه الشديد مما يحدث ، ربما يكون ماثيو استثناءً بسيطاً إذ أنه ظل يكرر أن هذه ليست إلا مرحلة من خطة الرب ، وأنها ستؤتي ثمارها أياً كان الثمن وأياً كانت النتيجة ، وكتم برايان سخريته من هذا بلا شك!

وبالفعل أصاب سباستيان أحد الثلاثة في مقتل ؛ فأصبحا اثنين وحسب!

وعندها ثارت ثائرتهما ؛ فأخذا يطلقان النار عشوائياً على جاكوب ؛ فأصاباه من على بعد في مواضع كثيرة من جسده جعلته ينتفض ألماً ويسقط أرضاً داخل المستودع ؛ ولم يتمالك ألبرت نفسه هو الآخر من الغضب فتراجع إلى الداخل وهو يطلق رصاصات عشوائية أصابت أحد الاثنين في مقتل ، ولم يبق إلا وغد واحد!

استتر ألبرت بجدار داخل المستودع ، وحث سباستيان نفسه ليبقى مكانه كدعم احتياطي وقاوم النزول إلى أسفل ؛ فيبدو أن عددهم قل بأية حال!

دخل الرجل الأخير المستودع ولم يأبه لجاكوب الذي كان يتأوه من جراحه بصوت خفيض ، وإثر رؤيته ترك ألبرت الساتر وأطلق النار عليه لكنه لم يصبه ، وظل يتبادل إطلاق النار معه ويكرر الاختباء والظهور من خلف الساتر لبضع ثوان خرج فيها ماثيو من الظلال حيث كان يختبئ ، وقد حمل قضيباً حديدياً سميكاً واقترب من الرجل بحذر وبخطوات هادئة جداً ، ثم هوى على رأسه بالقضيب بقوة أفقدته وعيه ، وقال: "هذا أقصى ما لدي ، سامحوني ؛ إن الرب لا يحبذ القتل!"

وهنا برز برايان هو الآخر ، واستل مسدساً وأطلق النار على رأس الرجل ، ثم تحدث وهو ينظر إلى ماثيو: "لا يهم الآن كثيراً إن كان يحبه أم لا ، لكن لا تقنعني أنه ليس ضرورياً الآن!"

مط ماثيو شفتيه دون اعتراض كاظماً انفعالاته ، وسمع هو وبرايان ألبرت يصرخ باسم جاكوب وهو يسرع تجاهه ، وعندما التفتا ورأيا جسد جاكوب الذي تفجرت منه الدماء أنهاراً من مواضع شتى فغر كل منهما فاه من أثر الصدمة وهما يهرولان نحوه ، وكذا سباستيان الذي أثار قلقه صوت ألبرت فنزل من مكانه ليرى ما يحدث ، وعندما لمح صديقه على الأرض وهو ينزف بغزارة أسرع هو الآخر نحوه وقد كاد قلبه يقفز من بين ضلوعه!

جلس كل من الأربعة على ركبتيه حول جاكوب ، والذي رغم أن جراحه لم تكن في أماكن مميتة حقاً إلا أن كثرة مواضعها وغزارة الدماء التي سالت منها جعلت بينه وبين الموت حاجزاً لن يستمر إلا لمدة لن تصل حتى لخمس دقائق ، والمؤسف أكثر أن الخمسة علموا أن الموت قدره في هذه الحالة ولو حضر لأجله أبرع وأمهر أطباء الأرض ، سيموت جاكوب بكل أسف وأسى مهما فعلوا وأياً كان ما فكروا في فعله!

اغرورقت عيونهم بالدموع وهم يتأملون هذه النهاية الأليمة لرفيقهم التي لم يتمنوها له هو بالذات ، وآلمهم عجزهم الشديد وشعورهم في هذه اللحظة بأن لا شيء له معنى حقاً ؛ وكأن الحياة فقدت معناها وحقيقتها لديهم بوصوله إلى هذه الحال ، ولم يجد أحدهم كلمات ليقولها عدا ألبرت الذي تمنى لو انشقت الأرض وابتلعته كونه شعر أنه

السبب الحقيقي لكل هذا من البداية ، ودنا من وجه رفيقه قائلاً بأسى وغم شديدين من بين دموعه: "عليَّ اللعنة ، علي اللعنة إذ حدث لك هذا كله بسببي!"

رد جاكوب ببروده المعهود رغم أن حياته على المحك بالمعنى الحرفي: "أنا لست غاضباً منك ؛ كنتَ محقاً منذ ذلك اليوم حين زرتني في المرسم ، وها هي أيام وشهور كثيرة قد مرت ، لكن يبدو...أننا أحرزنا تقدماً!"

=لا معنى لكل هذا من دونك!

-أما عني ؛ فربما تكون هذه اللحظة هي المعنى لحياتي كلها!

=...جاكوب ، بم تشعر ؟!

-أخبرتك...أنا لا أشعر!

=ولا حتى بالموت وألمه ؟!

-كلا!

=...حتى الموت لم يشفِك!

-لا شيء...يمكنه أن يشفيني...لا سلام يليق بي...لا تأبه بي يا ألبرت!

=...أهناك ما تود قوله...يا صديقي العزيز ؟!

=...حتى ولو أردت أن أقول...فلن...أستطيع!

=...ألا تشعر...بأنك تود أن تودعنا ؟!

-أنا...لا أشعر بشيء...ولا أهتم بشيء...ولا أود شيئاً...لكن...لم يكن في قلبي أماكن شاغرة...لسواكم...أبداً!

نطق جاكوب جملته الأخيرة ، ثم فاضت روحه!

الفصل السادس

الختام

٣ يناير ١٩٦٤م

"مذكراتي العزيزة ، تقبلي خالص تحياتي وامتناني المعتاد لكونك شاهدة على بدايتي الحقيقية في دنيا الكتابة الأدبية ، وعلى كثير من أحداث حياتي بأية حال ، أما بعد...

فإني حقاً وصدقاً أفتقد جاكوب ، وأتألم لمصابه!

قُتِلَ أمام ناظريَّ قبل حوالي نصف عام ، وقد رأيته فاقد الشعور عند الموت لا يأبه له حتى ، وأظن أن هذا الحدث سيلازم عقلي وذكرياتي أبد العمر...بطل بلا روح شارك في مهمة عظيمة لبعث الروح في مدينة يسكنها موتى سائرون ، ومات موتة ثانية بعد موتته الأولى...بطل أحيا الجميع وهو ميت!

بعد أن كشفنا الحقيقة بثَّاً للحمية في صدور الناس كي يخرجوا على الحكام - فقد ارتأينا أن هذا هو الحل الوحيد لإنهاء كل هذا - وجدنا أن كثيراً منهم شهدوا بالفعل مطاردة الجنود لجاكوب ، وعندما علموا منا بقصته أشفقوا عليه وثارت ثائرتهم ، وزاد لهيب غضبهم فحدث ما حدث أخيراً وقامت الثورة بالفعل!

لم تكن ثورة جياع أو محرومين بل ثورة أناس غمرهم حنين جارف إلى ما كان يصنع بشريتهم ويحدد قيمتهم ، وملوا الروتين والمثالية واليُسر وكل ما يُفقد التجربة الإنسانية معناها ، لقد كشف الحكام عن جانبهم المظلم حينما رفض كثير من الناس مفهومهم عن الوطن ، وما هو الوطن بأية حال ؟ ما يصب في مصلحتهم ويرتبط بتمجيدهم وتقديسهم أم ما يحقق رغبات ورؤى ووجود الشعب ؟!

أذكر جيداً كيف بدأ هذا كله ، وأود أن أقول رأيي الذي دونته في مائة مذكرة تقريباً قبل هذه: لا يجب أن نكون عبيداً للفن والأدب والدين وغيرهم أو أن نلغيهم تماماً من حياتنا ؛ فإني أظن أن الروح الإنسانية مجموع كل هذه الأشياء ؛ الدين والثقافة والمشاعر والفن وغيرهم ؛ فهذه هي محددات هويتنا البشرية ، وإن أخذوا كل ذلك منا فلنركض إذن عراة في البرية ونأكل لحوم بعضنا لأجل البقاء!

بالعودة إلى جاكوب فإني لا أزال أشعر بقدر من الذنب لمقتله إذ أني من بدأ كل هذا ، لكن رفاقي هدأوا من روعي ، ونتيجة حركتنا النهائية هونت علي ، وتحريرنا لأرواح الناس أشعرني أني أحدثت فرقاً ، وكذلك فإني ممتن حقاً لعزيزتي هيلين التي ظلت بجانبي إلى أن تخطيت الأمر بعض الشيء -كما هو واضح - وتزوجتها!

ليتك كنت هنا يا جاكوب ، ما زلت أذكر حينما بدأ أمر فقدان الشعور هذا يضايقك ، سألتني وقتئذ ذات مرة مازحاً إن كانت الشمس مَلَّت الشروق والغروب أو كانت الأرض ملت الدوران مثلما مللتَ أنت الحياة وما عدتَ تشعر بها ، وسألتني ساخراً السؤال الأهم: ما الذي يدفعهما لمتابعة الدوران دون أن يفكرا في أمر جديد يفعلانه ؟ وأجبتك بسخرية مماثلة أنا الآخر حينها بأن هذا ليس سوى سيناريو المخرج ، وأنهما يفعلان ما قُدِّرَ لهما فعله وحسب ، لكني اليوم ما عدت أراها إجابة ساخرة...

أظنك فعلت ما كان مقدراً لك أن تفعله ، إني متأكد أن مصيرك كان البطولة والخلود المعنوي منذ البداية ، أياً كان ثمنهما!

لربما تكون قد مت مادياً ، لكنك حي معنوياً في قلوبنا وتحديداً في قلبي يا جاكوب ، وهذه أعظم حياة قد أتمناها لك ؛ أن تحيا كرمز بدل أن تحيا بطلاً بلا روح يخوض معارك لا يربح أو يجني من أغلبها أي شيء.

أنعلم ؟ صدقت نبوءة ماثيو حقاً ؛ انتفض الناس لأجلك لا لأجلنا أو لأجل أنفسهم!

لروحك السلام يا صديقي العزيز ، لا أدري حقاً ما إن كنتَ قد سامحتني بصدق أم لا لكن...لا بأس ، سأتأقلم.

لكن كل ما أتمناه الآن حقاً هو أن تكون قد غفرت لي يا جاكوب ، أنا آسف على كل شيء ، لا نكهة حقيقية لهذا النصر وهذه المعجزة من دونك...لكن هذه هي الحياة ؛ ثمن الحياة الحقيقية هو الموت دائماً ولا ثمن غيره...الموت ثمن الكمال ، وأنت الآن في نظرنا أجمعين بطل كامل لا يشوبه نقص أو عيب ، أكثر منا حتى يا جاكوب ، لو أنك ترى كم تعاطف الناس معك وأحبوك دون أن يعرفوك حتى ، وكأن القدر تآمر ليقدسك الناس أجمعين!

ارقد في سلام يا جاكوب...البطل بلا روح!"

من مذكرات ألبرت

بتاريخ: ٣-١-١٩٦٤م.

تمت بحمد اللّه